الكتب المدمَّرة في العراق

ومقالات أخرى

ترجمة وتحرير جودت جالي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بطبع هذا الكتاب أو التصرف بمادته بأي شكل

كان أو اقتباس جزء منه لغير المقالات النقدية والاعلانية والتعليمية إلا بموافقة من المؤلف0
يمكن تحميله للقراءة الفردية فقط وليس لأغراض تجارية.

الكتب المدمَّرة في العراق ومقالات أخرى

ترجمة وتحرير جودت جالي

2020

العناوين

الكتب المدمَّرة في العراق

درس ميخائيل باختين

المثقفون والحرب الأهلية الإسبانية

فيكو وأصول الشعر

عن ملاءمة الماركسية لدراسة المجتمعات البشرية

دور الكلمة في تاريخ الحركة الإشتراكية

الكتب المدمَّرة في العراق

فرناندو بايز

Fernando bàez

*

مقدمة المترجم

هذا الفصول من كتاب الشاعر والكاتب الفنزويلي فرناندو بايز (التاريخ الشامل لتدمير الكتب... من الألواح السومرية الى حرب العراق) طبعة عام 2008 ويقع في 528 صفحة من القطع الكبير مقسم الى شكر ومقدمة عامة وثلاثة أجزاء (العالم القديم، الحقبة البيزنطية الى القرن التاسع عشر، القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين) وكل من هذه الأجزاء مقسم الى فصول مضاف إليها ملاحق وهوامش، وهو مترجم من الإسبانية الى الفرنسية. وفي طبعته التي بين أيدينا أعطى مساحة تفصيلية واسعة للحرائق التي طالت مكتبات العراق ونهب متاحفها ومواقعها الأثرية والتي زارها ضمن اللجنة التحقيقية والتقييمية المكلفة من قبل اليونسكو بعد أحداث 2003. لدي إضافة على ما سيرد ذكره في هذا الفصل الأخير من الكتاب وهذه الإضافة تتلخص في أنه توجد مكتبة مهمة لم يرد ذكرها أبدا وهي مكتبة مستشفى الرشيد العسكري التي نهبت جميع كتبها حالها حال المعدات والمواد التي كانت في جميع الوحدات العسكرية. هذه المكتبة عريقة وهي موجودة منذ أن وجد المستشفى قبل حوالي ستة عقود وربما أكثر وكانت تضم آلافا من أمهات الكتب العربية والأجنبية من بينها طبعات لكتب في ثلاثينيات القرن الماضي مثل (عبقرية الشريف الرضي) بجزئين لزكي مبارك طبعة 1938 مطبعة المعارف، وكتاب (جمهرة خطب العرب) مع ذيل الخطب بثلاثة مجلدات لأحمد زكي صفوت طبعة 1934 مطبعة الحلبي بمصر، ومؤلفات طه حسين وكتب فقهية وتأريخية نادرة جدا وغيرها من الكتب والمعاجم التي تعد ثروة ثقافية لا تقدر بثمن إلا أن أحدا لم يبلغ فرناندو بايز بأمرها كما يبدو، وقد رأيت أنا بنفسي هذه الكتب وغيرها معروضة للبيع في أسواق الكتب وعليها دمغة إدارة المكتبة (مكتبة مستشفى الرشيد العسكري) وبين أوراق بعضها

كانت لا تزال كارتات الإستعارة أو أوراقها ملصقة على الغلاف الأخير من الداخل. لم يكن ممكنا للباعة أن يزيلوا الدمغات لقدم بعض الكتب وتعرض الورق للتلف في محاولة المحو.

فيما يلي نترجم المقدمة وفصلين.

مقدمة كتاب (التاريخ الشامل لتدمير الكتب)

==========

هناك حيث يحرقون الكتب

ينتهي بهم الأمر الى إحراق الناس

هاينريش هاينه (المنصور) 1821

كل كتاب محترق يضيء العالم

ر. دبليو. إميرسون

مقالات. سلسلة أولى 1841

==========

لغز بغداد

"ذاكرتنا لم تعد موجودة. مهد الحضارة، والكتابة، والقوانين إستحال الى دخان ولم يتبق سوى رماد." هذا التعليق سمعته في بغداد من أستاذ لتأريخ القرون الوسطى. غادر الرجل حينئذ المبنى الحديث للجامعة حيث نُهبت جميع كتب المكتبة دون إستثناء حالها حال محتويات قاعات الدرس ومعدات المختبرات. كان يقف وحيدا قرب المدخل، يغطيه ظل كثيف، ربما خيل إلي أن صوته عال جدا، ولكن ذلك الصوت كان أيضا جزءا من تلك الصرخة الطويلة الواخزة التي لا نهاية لها والتي ترتفع من الشرق الأوسط أحيانا. كان يبكي وهو ينظر إلي. بدا لي

وكأنه ينتظر شخصا ما، وبما أن هذا الشخص لم يأت، إبتعد بعد دقائق، هائما على وجهه، مارا بحفرة عظيمة أحدثها صاروخ قرب المبنى. بعد بضع ساعات ألقى أحد طلبة التأريخ الضوء على معنى كلماته حين إقترب مني وقد إكتست ملامحه بمظهر السلطة التي تمنحها المعاناة للإنسان. كان يرتدي بلوزا ماروني اللون وينتعل نعالا من الصندل، ويضع عوينات، وبرغم لحيته القصيرة بدا شابا في العشرين أو الثانية والعشرين من العمر، وهي السن التي عادة ما يشكو فيها المرء. لم يكن ينظر أمامه، ولا الى أي مكان، وفي الحقيقة، أنا لا أعرف إن كان ينظر حتى. سألني: "لماذا يدمر الإنسان كل هذه الكتب؟".

طرح سؤاله بهدوء، أردفه بإستشهاد لم يبد أنه كان واثقا منه، وأضاف بأن العراق عانى خلال قرون من السلب والتدمير الثقافيين ثم تساءل بسخرية:" ألست أنت الخبير؟". كان الشاب يدعى عمادا، وتناول بيده اليسرى أوراق ديوان كامدة اللون لشاعر فارسي كانت بينها ورقة سعفة يابسة وضعها أحدهم ليعين الحد الذي وصل إليه في القراءة. أعترف أني لم أعرف ماذا أقول وإنسحبت. كانت تدور نقاشات في الممرات وفضلت تجنب الجدال. فيما بعد، ما أن دخلت غرفتي في الفندق قادني إضطرابي الى التدقيق في أفكار معينة، وأصبح الزمن بالنسبة إلي هو الحيز الوحيد، ممر وحيد، وضيق، وضروري، ولا مفر منه حتى. لا أعرف لماذا أحسست بأني عاجز جدا، ولماذا تلح اليوم علي، بعد مضي عدة أشهر، هذه الواقعة التي تؤكد، في العمق، أني ربما لم أفهم شيئا، وكل جهد أبذله للإستدلال أمام الرعب هو ملتبس ولا جدوى منه. مع ذلك أرى أنه كان يتوجب علي، من تجربتي الخاصة، أن أجد مخططا أوليا يسوغ جوابا على سؤال هذا الطالب البغدادي، وهذه المقدمة لا تدعي شيئا آخر غير محاولة للإجابة.

سأقول فقط بأني حين وصلت الى بغداد (كان الشاعر والكاتب الفنزويلي موفدا من قبل اليونسكو ضمن اللجنة التحقيقية والتقييمية للأضرار التي لحقت بالمراكز الثقافية–المترجم) في آيار 2003 عرفت شكلا جديدا، غير مباشر، مسرفا، من أشكال التدمير الثقافي. بعد إحتلال القوات الأميركية لبغداد بدأت عملية إذلال عن طريق الإلغاء، عملية مترجرجة وبادية للعيان، تخالف بنود إتفاقية لاهاي لعام 1954 وبروتوكولات 1972 و 1999. لم يحرق الجنود الأميركيون مراكز العراق الثقافية ولكنهم لم يحموها، وهذه اللامبالاة أعطت الضوء الأخضر للمجاميع الإجرامية، وإنضافت الى النزعة المحترفة المدمرة للنفائس نزعة أخرى،

ساذجة، هي نزعة حشود السلابة التي شجعتها الدعاية المثيرة للحقد ضد رموز نظام صدام حسين في بلد جرى العرف فيه أن تنسب هذه المتاحف والمكتبات الى السلطة، وحين إجتاحتها النيران أضفى الصمت الشرعية على الكارثة.

في يوم 12 نيسان 2003 تناهى الى أسماع العالم خبر نهب المتحف الوطني في بغداد. إختفت ثلاثون قطعة لا تقدر بثمن وسرقت 14 ألف قطعة آثارية أقل قيمة ودمرت القاعات. في 14 نيسان إلتهمت النيران مليون كتاب في المكتبة الوطنية مع أكثر من عشرة ملايين من سجلات العهدين العثماني والجمهوري، وفي اليوم التالي، تكررت نفس الأفعال مع مكتبة جامعة بغداد ومكتبة الأوقاف وعشرات المكتبات الجامعية في جميع أنحاء البلاد. أُحرق في البصرة متحف التأريخ الطبيعي، والشيء نفسه حدث مع المكتبة المركزية العامة، ومكتبة الجامعة، والمكتبة الإسلامية. في الموصل كانت مكتبة المتحف ضحية خبراء مخطوطات إختاروا نصوصا معينة حملوها معهم. في تكريت ضربت القنابل المتحف مسببة هرب حراس الأمن ما سهل أعمال النهب. إنضاف الى هذه الكارثة، المفاجئة تماما، وقوع آلاف المواقع الأثرية تحت الخطر بحكم غياب الرقابة، وبدأت تجارة غير شرعية عابرة للقوميات بالأعمال الآثارية على نطاق لا سابق له. في الواقع أنه برغم جهود القوات الإيطالية فإن أي موقع تأريخي في العراق ليس بمأمن. تجوب عصابات مسلحة بالكلاشنكوف مواقع الحضر وإيسين وكولال جبر ونينوى ولارسا وتل الذهب وتل الزابول وتل جوخه وأور وتل النمل وأم العقارب. ما أن تمر الطائرات السمتية والدوريات حتى يعود اللصوص، ليحفروا دون أن يعبأوا بما يسببونه من أضرار بالأشياء، وكسر للرسوم الجدارية. بعض القطع نقلت الى الكويت أو دمشق ومن هناك عبرت الى روما وبرلين ونيويورك ولندن حيث يدفع جامعو التحف الخاصة الثمن الذي يطلب منهم. وهنا يحق لنا أن نتساءل: لماذا هذا القتل للذاكرة على الأماكن التي ولد فيها الكتاب؟

بين الكتب المدمرة

إن ما إكتشفته في العراق يذكرني بأول مرة رأيت فيها كتابا يدمر. كان عمري أربع أو خمس سنوات وكنت أعيش في فقر مدقع ملاذي الوحيد منه هو مبنى المكتبة العامة في قريتي. كان أبي محاميا شريفا ولذلك لم يكن يحصل على عمل، وأمي المولودة في لاس بالماس في غراند كناري توجب عليها أن تعمل طوال اليوم في محل بزاز تخيط أو تحل الخيوط مثل زوجة المسافر العظيم عوليس. أجبرهما هذا الوضع على تركي في البيت الذي كانت تشغله المكتبة في سان فيليكس بغوان الفنزويلية معتمدَيْن على مساعدة سرية من عمة بالمصاهرة وأرملة عملت هناك لبعض الوقت سكرتيرة إتصفت بالتشدد. هكذا قضيت أيامي كلها تحت رعاية تلك المرأة المحبوبة اللا مبالية بين الرفوف المنخورة وعشرات الكتب. في ذلك المكان إكتشفت قيمة القراءة. عرفت بأني يجب أن أقرأ لأني لا يمكنني سوى أن أقرأ. كنت أقرأ لأن القراءة الجيدة تمنحني أقوى الأسباب لأن أواصل القراءة. قرأت كل ما وقع بين يدي.. مواجيز، علب بطاقات، كتب إرشادية، مختارات نقدية، بطاقات الكتب "الكلاسيكية"، نصائح لقضاء نهاية الأسبوع. إذا ما كنت مهتما بالكتب بهذا القدر فلأنها أصدقائي الوحيدون. أجهل إذا ما كنت في تلك الفترة سعيدا، كل ما أعرفه هو أني عندما كنت أقلب تلك الأوراق التي كنت متعلقا بها كنت أنسى الجوع والبؤس وقد أنقذني هذا من الشعور بالسخط والخوف. كنت، بتعلمي القراءة، أدفع عني تلك الوحدة البشعة التي وجدت نفسي غارقا فيها ساعة بعد ساعة. تعلمت، مثل الكثير من الأطفال الآخرين، أن أعرف قيمة مؤلفين مثل جول فيرن، وإميليو سالغاري، وأدجار آلان بو، وروبيرت لويس ستيفنسن، وشغفت بالصفحات الملونة لموسوعة لا أستطيع تذكر إسمها اليوم لكنها أثرت في آنذاك لأنها كانت تظهر المركبات الفضائية على سطح القمر وراودني الحلم بأن أكون يوما رائد فضاء، ومن يراني حينها ببنطالي المثقوب وقميصي المرقع وشعري الأشعث سيضحك مني دون شك ولكني آمنت بحلمي إيمانا حقيقيا. كنت أؤمن بما تقوله الكتب، وكنت أبكي حين أرى في محفورة دون كيخوته يرقد وهو يتعذب.

هذه السعادة قُطعت فجأة: بدأت تعلو مياه نهر كاروني وهو رافد من روافد نهر أورينوك وأغرق القرية جارفا بفيضانه الأوراق التي كانت دافعا لتطلعي الى المعرفة. لم يبق كتاب واحد، وهكذا وجدت نفسي دون ملاذ وفقدت جزءا بكامله من طفولتي الماضية في هذه المكتبة

التي دمرها تماما الماء المعتم. خلال الليالي التالية كان يتراءى لي في أحلامي كتاب ستيفنسن (جزيرة الكنز) وهو ينحدر مع الماء أو تطفو واحدة من تراجيديات شكسبير.

لم أشف أبدا من هذه التجربة الرهيبة، وقد إتفق بشكل غريب أن لا تكون هي الوحيدة. روى غوته بأنه عندما كان صغيرا شهد عملية إعدام كتاب في فرانكفورت وقد أزعجه أن يرى "كيف يعاقب شيئا جمادا" (1). في السابعة عشر من عمري، في نهاية السنة الدراسية، رأيت زملائي في الصف المنتهي يحرقون كتب الصف، لقد إستولى عليهم الهياج الى درجة إستحال علي معها أن أثنيهم عن عزمهم، وأصبحت محاولاتي لإطفاء النار موضع تندرهم. في سن التاسعة عشر عندما كنت وكيلا تجاريا وأقوم ببيع موسوعة تكرر الكابوس عندما دمر حريقٌ مكتبةَ الكتب القديمة حيث إعتدت أن أذهب. لا تزال صورة صاحب المكتبة ماثلة في ذاكرتي بكل تفاصيلها، اليدان المحترقتان، العيون المغمضة، الوجه الذي شوهته النار. في عام 1999 زرت سراييفو مع زميل لي ورأيت فيجكنيكا مدمرة. تعرفت هناك على شاعرة جميلة لن أذكر إسمها هنا قالت لي:"كل كتاب مدمر هو جواز سفر الى الجحيم". في السنة نفسها رأيت إنهيارا أرضيا يدمر مكتبة الساحل الفنزويلي. في عام 2000 تجولت في عدة مدن كولومبية دمرت مكتباتها بالحرب الأهلية التي فتكت بالبلاد.

أصبح الموضوع بالنسبة لي إستحواذا، عن وعي أو عن غير وعي، وإذا بي ذات يوم جميل أهيئ كتابا أروي فيه هذه الأحداث. في عام 2001 إستلمت وأنا مندهش، كما يتوقع من أي شخص في حالة كهذه، صندوقا ثقيلا كان هو الحجر الأساس لبحثي. قال لي الساعي بعد أن أعطاني الوصل بأن الصندوق جاء من كاراكاس، كان يوجد مظروف ملصق في الأعلى يحتوي على ملاحظة مختصرة إمضاؤها غير مقروء تؤكد بأن الشحنة هي كتب، الممتلكات الوحيدة لجدي دومينغو الذي عهد بها إلي بوصية، وهذه الملاحظة كانت توضح أيضا بأن الكتب كانت محفوظة عند عم لي توفي مؤخرا. الشيء الذي يبدو غير معقول بالمرة هو أني لم أعرف جدي لأبي أبدا، وهو إسكافي محترم. القليل الذي أعرفه عنه هو الحكايات التي رويت لي في العائلة.

أحصيت في الصندوق الملطخ بالزيت والرماد أربعين مجلدا. أهديت منها تلك التي لم تثر إهتمامي ولكني إحتفظت بكتاب وليام بليدز (أعداء الكتب) 1888 ويحتوي عرضا مليئا

بالفكاهة لحالات تدمير النصوص. ذهبت لرؤية أبي، وأنا متأثر ومقتنع بأن في تسلمي للكتب علامة ما. كان متقاعدا ويعيش مع أمي ويعاني من مرض باركنسن. حدثته عن ميراثي الغريب فلم يظهر، وهو الصادق مع نفسه، أي إندهاش، بل على العكس قال لي أن جدي غالبا ما كان يحدثه عن مكتبة الإسكندرية، لغزه التأريخي المفضل. عندما هممت بالمغادرة إحتضنني فخامرني إحساس بأن هذا الإحتضان هو الأخير.

إن تدمير الكتب، بقدر ما أستطيع العودة بذاكرتي الى الوراء، قد أثار فيَّ دائما مشاعر الرعب. لاحظت بأن كلمات مثل "الإسكندرية" و "هيباتي" Hypatie) أو Hypatia فيلسوفة مصرية وعالمة رياضيات ولدت في الأسكندرية عام 370 وقتلت فيها عام 413 على إثر إضطرابات مذهبية طالت بالتدمير مكتبة الإسكندرية–المترجم) و "رقابة" تكاد تثير في الريبة. إن سؤال ذلك الطالب الجامعي البغدادي سمح لي بأن أدرك بأني يجب أن أنجز سريعا هذا البحث وأظهر للعالم واحدة من أكبر كوارثه الثقافية. منذ 55 قرنا كانوا يدمرون الأعمال دون أن يعرفوا الأسباب معرفة حقيقية. توجد مئات الوقائع عن أصل الكتاب والمكتبات ولكن لا يوجد تأريخ واحد عن تدميرها. أليس غياب هذا التأريخ يثير الشك؟

أساطير قيامية

إكتشفت بالصدفة وأنا أبحث عن نظرية حول تدمير الكتب بأن العديد من الأساطير تروي كوارث كونية لتفسير أصل العالم وإعلان نهايته. لاحظت أن جميع الحضارات قدمت أصلها ونهايتها كأسطورة تدمير(2) معارضة لأسطورة الخلق ضمن إطار يكون المحور فيه هو العودة الأبدية، لقد تم اللجوء الى Apocatastase (إستعادة حالة سابقة، عودة الى وضع أصلي– ملاحظة ناشر الكتاب) لتسويغ نهاية التأريخ وبداية الأبدية. في الميثولوجيات القديمة نجد مئات القصص وصفت فيها الطريقة التي طُهِّر بها خداع البشر بالماء أو النار أو عنصر آخر أو سيطهر في مستقبل مفترض لا محالة. وهذا هو السبب في أن دورات التدمير والخلق هي البديل الوحيد المعروض للكون. هذا الإعتقاد كان موضوعا دائما في الصدارة في

التصورات العبرية، والإيرانية، والإغريقية–اللاتينية والأميركية الوسطى. إن تأريخ نهاية العالم في المزدكية والزرادشتية محدد، أما عند الأزتيك فالآلهة ضحت بنفسها لتعطي دمها وقلبها للشمس، وهذا الطقس مستدام بفضل الحرب التي تسمح للبشر بإعادة إنتاج هذه اللحظة بشكل أبدي. و Ragnarök الجرمانية أي "الإشتعال العظيم" تعرض حصيلة أساطير شرقية ومحلية كمصدر للتعزي. تعلن النبوءات Sibyllins) هي نبؤات المرأة سيبيل الإغريقية عاشت في القرن الخامس قبل الميلاد–المترجم) بإستمرار نهاية روما وولادة عالم جديد. أخذت المسيحية هذه الأسطورة وأضافت الى سفر التكوين في العهد القديم رؤيا العهد الجديد التي تقول أن الرؤيا ستكون كارثة تكشف حقيقة الأشياء وتستعيد الطهارة المفقودة. في الواقع أن الكلمة الإغريقية Apocalypsis تترجم بمعنى "تدمير" وأيضا بمعنى "تجل". يوجد تدمير حيث يوجد تجل، ولكن الرسالة النهائية ستكون رسالة زمن جديد.

إضافة الى خاصيتها النشأ–كونية والآخروية فإن أسطورة التدمير تنطوي على جوهر الآلهة من حيث هي خالقة ومبيدة في آن معا. كذلك تم التأكيد في هذه الأساطير على الخاصية المقدسة لأداة التدمير، فالنار إله، والماء إله، وكان الكريتيون يعبدون الثور لأنهم يعزون الى غضبه الزلازل والهزات المتواترة التي تحيق بجزيرتهم، وتصور السومريون نيرجال إله التدمير على شكل شاب كل قسماته تعبر عن قوة الإعصار، والسيف كان رمزا إلهيا يحمل إسما خاصا. وبنفس المعنى فإن معرفة أسطورة كل عنصر مدمر تحمل الخلاص للعارف بها. في الملحمة الفنلندية Kalevala مثلا... العجوز Väinämöinen الذي أصيب بجرح خطير تمكن وحده من أن ينجو عندما تلا قصته وهو يتذكر الأصل المقدس للحديد. في أغلب الحالات كان يُعتبر الرجل المدمر ملهما أو إلها أو شيطانا أوتي سطوة، أو مداويا أو كلي العلم. هكذا Berserkir أو المحاربون الشقر يطلقون لغضبهم العنان ليندمجوا بالنموذج المثالي لغضب الآلهة المقدس. إن الملك الجيد كان دائما مدمرا يكرر الأفعال الإلهية.

يبدو لي أن هذا البقاء الذي لا ينكر لأساطير الإبادة في علم التكوين الديني والميثولوجي ينطوي على المفتاح الذي سيدخل القارئ الى تقديراتي، وأذهب الى حد القول أن أمثلة الإبادة الأصليةَ تعكس أساسا قناعة بطبيعة الإنسان الأكثر وضوحا وإيلاما. رسمت الأساطير السيناريو إنطلاقا من الإيمان بأنه يوجد تطابق بين كل ما يحصل في الكون وما يحصل في

الحياة اليومية، إيمان يطبق نموذج حماية طقوسية يعطي دعما لمخطط السلوك الجماعي أو الفردي. بهذه الطريقة يتقارب الكون الأكبر مع الكون الأصغر ويرتبطان بضفيرة المثولية (مثول كائن في كائن آخر) بالمعنى الصرف. إن العيش في عصر عقلاني لا يمنع الفكر والعلم من أن يكونا أساطير مقَنَّعة.

إن الذين يعزون سبب النزعة التدميرية الى غريزة (3) ليسوا بعيدين عن الإنسان البدائي الذي يعزوها الى عفريت أو عنصر من عناصر الطبيعة. إن تمركز هذه الغريزة كان موضوع آخر فرضية في مبحث علم الأعصاب: في ما تحت مهاد الدماغ، في النظام الطرفي Limbique ، وأيضا في الفص Prefrontal ، لهذا السبب يبدو أنه لا يمكن نكران أن العنف البشري يعلن عن نفسه بفترات إجتماعية. في حقبة الرؤية الثيولوجية كانت تحكمنا الآلهة، وفي حقبة الرؤية النووية نحن محكومون بوحدات دنيا بنيتها الجينية تقتضي وراثة رد فعل وصراع. إن كان يوجد شيء واضح في الهستيريا التعميمية هذه فهو أن نظرية الغريزة تتسجل في أسطورة تحرير خاصة بالإنسان هي محاولته للتحرر من مسؤوليته المباشرة بنشاطه التدميري.

فيما يخص معرفة إن كان يوجد أو لا يوجد في الأساطير القديمة سبب يفسر قابلية التدمير البشرية (4) أقدم جوابا إيجابيا ينأى بنفسه عن الدعاية الإختزالية الآيديولوجية أو العلمية. إن الأسطورة تجعل من البشري و "الكل" Tout مطلبا عمليا مرتبطا بأمل ربط الحالي بالمقدس. ضمن هذا المنظور يتمفصل الماضي والحاضر والمستقبل في وقائعية شفافة ومباشرة. إن الأسطورة، في المكان، تفترض ديناميكية الفترات في ممارسة تامة للتأسيس والمعيارية والوقاية و (البقاء). القصة القيامية تعرض الوضع البشري والقلق البشري: يتفاعل الأصل والنهاية في كلِ واحدٍ بعملية خلق وفناء لا يمكن تجنبها.

عندما يقوم الإنسان بفعل تدميري فإنه يسعى الى إقامة طقس الدوام والتطهير والترسيم. عندما يدمر فإنه يجعل السلوك المنشط في أعمق أعماقه آنيا، ساعيا لإقامة نموذج أصلي للتوازن، والقوة، والسمو. إذا ما تحرك عضو بايولوجي او إجتماعي فلن يكون له سوى هدف هو الإستمرار. إن الطقس التدميري كالطقس البنائي مطبق في تشييد المعابد أو البيوت أو أي عمل آخر، وهو تثبيت نماذج لإعادة الإنسان الى الجماعة بمنجى من الضلال.

على قدر ما تتزايد الأخطار على حفظ البشرية سواء بسبب زيادة إنتاج تمثيلات تحدث تغييرا في الحواس الطبيعية للإنسان، أو بسبب ظهور جنوحات ديموغرافية غير مسيطر عليها، أو سد حيز نشاط، فإن الملاءمة الإسطورية بإستعادة نظام ما عن طريق تدمير التهديد تكون أكبر. إن الإستقلالية تركزت في أسطورة التدمير وحولت محتوياتها الى بنى فيزياوية تتكون فيها الرغبة الأكثر غموضا والأكثر مماتا على شكل عيد الغطاس Epiphanie حول مركز هو الموت. التدمير هو الإضطلاع بالفعل الرمزي للموت إنطلاقا من رفض ما هو ممثَّل.

نظرية جزئية في البيبليوكوست Bibliocauste

قبل أن نفسر تدمير المكتبة أردت أن أؤكد على أن الكتاب إختراع متأخر كان الدافع إليه إكتشاف الكتابة. حسب رأي الأنثروبولوجيين فإن السلف الأول للإنسان الهومو هابيليس يبلغ عمره 2,5 مليون سنة، والهومو سابينس سابينس الذي تحدر منه الإنسان الحديث طور الكتابة منذ بضعة آلاف من السنين فقط، وهذا يعني بأن 99 بالمئة من ماضي البشرية قبل التأريخ و 1 بالمئة تأريخ مكتوب.

إن ظهور الكتابة (5) يفترض تحولا كاملا في الذاكرة الجماعية لدزينة من الحضارات المؤسسة. يرى ريجي دوبريه الذي يصنف التأريخ في طور أول logosphere وطور أخير Videosphere بأن Graphosphere يناظر إحدى نوى الأونطولوجيا البشرية (6). من بين كل النشاطات التي تميز الثقافة فإن الكتابة هي واحدة من أكثر النشاطات أهمية لأنها أداة لا تضاهى للتنظيم الإجتماعي ولإعادة تأكيد الوجود، وكما تحددها الإيتيمولوجيا الأندو أوربية Skribh فإن الكتابة "قطع، تفريق، تحديد". عموما كل الأنواع البايولوجية تمتلك أنظمة إتصال صوتية، وكيمياوية، وحركية، وشمية، أما الإنسان فقد نجح في أن يمثل باللغة عملياته الأكثر تعقيدا، وعلى نحو ما، أن يحول الأصوات والإشارات الى علامات مرئية، مجردة، وتفاعلية تضمن حماية تقاليده. سرعان ما وصل من الكتابة الى ضرورة وجود حامل لها فكان هذا الحامل هو الكتاب. يقول بورخس عنه: " إن الأكثر إثارة للدهشة من بين أدوات

الإنسان المتنوعة هو الكتاب دون شك، أما الأدوات الأخرى فهي إمتدادات لجسمه. الميكروسكوب والتيلسكوب إمتداد لنظره، والهاتف إمتداد لصوته، والسيف والمحراث إمتدادان لذراعه. لكن الكتاب شيء آخر، إنه إمتداد للذاكرة والمخيلة" (7).

الكتاب هو الذي يمنح الذاكرة البشرية قوة الصوت. إن الكتاب برغم مفهومه الناقل هو أداة الذاكرة: وحدة عقلية، بوسائل سمعية- بصرية، مطبوعة أو ألكترونية، تمثل إرادة ذاكرية ولغوية. إن ما فرض نفسه حقا، في العبور الثوري من الشفاهية الى الكتابة، وبالذات في هذه العملية البليغة التي إنتصر فيها الكتاب كأداة عبادة، هو النموذج الأكثر يقينا للدوام والذي يشفر الحساسية ويترجمها الى حالات منتظمة ومشروعة، وبهذا فالكتاب إقتراح يسعى الى أن يجعل من كل تشكل عقلا وليس فوضى. إن الفكرة التي تفيد بأن الكتاب هو شيء أكثر من مجرد بنية مادية تحمل الذاكرة الجماعية أو الفردية قد أمدتنا بإستعارات قوية يمكن أن يكون نظامها مدهشا:

1)الكتاب الطلسم: يقول القديس جان كريسوستوم مثلا بأنه في القرن الرابع في مدينة أنتيوش كان الناس يعلقون في رقابهم مخطوطة قديمة للحماية من قوى الشر.

2)كتاب الحياة: هو الإيمان بكتاب سماوي كتبت فيه أسماء كل من توجب أن ينقذوا في يوم الحساب كما قال القديس جان.

3)كتاب الطبيعة: يرى أفلوطين النجوم بوصفها حروفا أبدية كتبت في السماء.

4)كتاب العالم الذي يجعل من الكون كائنا فهرسيا.

5)يرى الشاعر ستيفان ما لارميه أن العالم لا يوجد إلا ليكون كتابا.

6)الكتاب-الإنسان كما قدمه والت ويتمان في (وداعا).

7)الكتاب أو الحلم المشترك.

الكتاب مؤسسة للذاكرة بقصد التكريس والدوام وهو ما يجعله جديرا بأن يدرس بوصفه مفتاحا للإرث الوطني الثقافي لمجتمع ما (8). لابد من أن نفهم أن هذا الإرث الوطني يوجد في نطاق

تكون فيه الثقافة هي الإرث الأكثر تمثيلا لكل شعب. إن الإرث الوطني بحد ذاته له القابلية على أن يثير إحساسا بالتأكيد أو بالإنتماء القابل للنقل ويمكن أن يبلور أو يحث وعي هوية الشعوب على أراضيها، والمكتبات أو الأراشيف أو المتاحف هي مواريث ثقافية وكل شعب ينظر إليها بوصفها معابد الذاكرة.

لهذا السبب ولأسباب أخرى تكون الأطروحة المركزية لهذا البحث. أقول وأؤمن بأن الكتاب لا يدمر بقدر ما هو شيء مادي بل بقدر ماهو رابطة تذكارية، يعني بوصفه محورا من محاور هوية إنسان أو جماعة. ليس من هوية دون ذاكرة. إن لم يتذكر المرء من هو لا يعرف من هو. رأينا خلال قرون أنه عندما تحاول جماعة أو أمة إخضاع جماعة أو أمة أخرى فإن أول شيء تفعله هو محاولة محو آثار ذاكرتها لإعادة تشكيل هويتها.

في ظاهرة إعدام الكتب حرقا يكون من الواضح أن من ينفذونه يعرفون أنه لا يكفي إغتيال كاتب أو سجنه، وحتى إبادة الشعب الذي يرى أنه ممثَّل في روح هذا النص. لا بد من الذهاب الى جذور المشكلة لنفهم فهما دقيقا أن قتل الذاكرة **Memoricide** هو في صلب تدمير الأعمال، وأن منظريها الرئيسيين تحركهم راديكالية تسعى الى إشعال حروب ثقافية حقيقية ذات طبيعة سياسية ودينية. لم يوجد ولا يوجد سبب واحد لتدمير كتاب أو مكتبة بل يوجد عشرات الأسباب. مع ذلك فيما وراء الحكايات الصغيرة الظرفية التي تدافع أو تتهم يهيمن قصدُ إفقادٍ للذاكرة تدريجي أو فوري يسمح بالسيطرة على فرد أو مجتمع. أعطيت في اليونان الصلاحية بتصفية جزئية للأراشيف كما حدث مع مرسوم عفو **Patroclide** عام **405** قبل الميلاد والذي أمر بمحو قائمة عامة وإقامة عقوبات لكل من ينقذ سجلا أو يجرؤ على تذكر الماضي بقصد التسبب بضرر. كان الرومان يسمون **Damnatio memoire** التي بها يمارس مجلس الشيوخ "إدانة التذكير" بكل من وصفوا بأنهم سفلة و، من بين إجراءات أخرى، جرى محو أسماء الذين مسهم هذا الوصف من جميع المخطوطات والكتب والنصب لكي تنساهم الأجيال التالية. من يمزق أو يحرق كتابا اليوم فإنما هو يستعيد هذا المخطط الكلاسيكي.

إن تدمير الكتب، عاما أو خاصا، يتم على الأغلب على مراحل كئيبة: تضييق، إقصاء، منع، نهب، وأخيرا تدمير. يوجد منع في الفيتو والتصحيح، يوجد منع في القمع التمييزي، يوجد نهب

في الفعل العفوي أو التجاري بالسرقة المباشرة أو غير المباشرة. إن الهجوم العنيف يهدف بوضوح الى تدمير النماذج الثقافية التي تشكل جزءا من الذكريات المشتركة للمتخاصمين بقصد التلاعب بالسياقات الأكثر مقاومة وإعادة بنائها كلها بالطريقة التقليدية. هذه الظاهرة تعرف أيضا تحت إسم التثاقف أو التبادل الثقافي عندما تفرض نفسها ثقافة على حساب أخرى وتزرع ذواكر جديدة في مجتمع ما. رأينا هذا على سبيل المثال في حالة التطهير العرقي التي مارسها النازيون والأنظمة الأستبدادية كنظام ماو في الصين. هذا هو إنتصار Erostrate : من يُدمَّر يَخسر.

تحرق الكتب أو تقصف المكتبات لأنها رموز. إستطعنا أن نرى مثالا على هذا يوم 25 آب 1992 حين قصفت المكتبة الوطنية في البوسنة والهرسك والتي أفتتحت عام 1896 ، وقد بدأ قصفها في الساعة 22,30 بالمدفعية. المكتبات ليست أهدافا عسكرية عادة ولكنها غالبا ما تضاف الى الأهداف في الحروب، والوقائع تثبت أن وضعها الخاص بوصفها أقطابا ثقافية لمجتمع ما يعرضها الى الخطر.

من المستحيل أن يكون القارئ قد سمع بحاسوب مقدس أو سيارة مقدسة ولكنه يعرف كتبا هي مقدسة بالنسبة الى مجتمعات عديدة يكون فيها الكتاب بالإضافة الى كونه نصبا ذاكراتيا فهو إعلان إلهي عن روح عليا والدليل على ذلك أن اليهود أقاموا في كنيساتهم غرفة تسمى كنيزة Genizah – جذر هذه الكلمة gnz يعني يخفي، يكنز- لحفظ المخطوطات أو النسخ التي تضم آيات أو نصوصا مقدسة. توصل اليهود، وهم مرعوبون من فكرة إحتمال تدميرها، الى تصور حيز عجيب في تأريخ العالم لدفن كتبهم. واحد من هذه الأماكن المهمة كان كنيزة القاهرة التي تأوي آلاف النصوص التي كتبت بالأبجدية العبرية. في 56 نفقا في جبال شيلتان في المنطقة التي تسكنها جماعة كويتا في الباكستان تواضب مجموعة من الحراس المتطوعين للدفاع عن مقبرة فيها 70 ألف كيس تضم نسخا متضررة من القرآن. تدعى هذه المستودعات جبل نور القرآن.

إن البيبليوكوست (على غرار الهولوكوست وهو تعبير جديد يستخدم لتعريف تدمير الكتب)هي محاولة لإبادة ذاكرة تشكل تهديدا مباشرا أو غير مباشر لذاكرة أخرى يفترض أنها متفوقة. أؤكد على حقيقة أن المرء لا يدمر كتابا لأنه يكرهه بقدر ما هو شيء. لا نعرف بوجود أعداء

لكتاب الجيب، أو لملاحظات نهائية، أو لورقة، أو لطريقة طباعة، أو لغلاف مذهب. يؤكد جون ميلتون في (Areopagitique من أجل حرية الصحافة والرقابة) الصادر عام 1644 بأن ما يدمر في الكتاب هو العقلية التي يقدمها " [....] من يدمر كتابا جيدا يقتل العقل نفسه". إن جزءه المادي لا يمكن أن تكون له صلة به إلا في سياق ظرفي: في الأصل هو لوح عند السومريين وعظم عند الصينيين، أو حجر أو بردية أو Codex أو ورقة واليوم هو سي دي أو أداة ألكترونية معقدة. يؤكد أمبرتو إيكو بأنه يوجد ثلاثة أشكال للبيبليوكلاستيا biblioclastie يعني ثلاثة أشكال لتدمير الكتب:

"[....]البيبليوكلاست المتطرف، والبيبليوكلاست عن طريق الإهمال، والبيبليوكلاست عن طريق المصلحة. المتطرف لا يكره الكتب بقدر ما هي أشياء بل يخشى محتواها ولا يريد أن يقرأها الآخرون. هذا ليس مجرما فقط بل هو مجنون أيضا بسبب التعصب الذي يحركه. [....] أما الإهمال فهو حال الكثير من المكتبات الإيطالية الفقيرة جدا والمعدومة العناية بحيث أنها تتحول غالبا الى أماكن لتدمير الكتب، لأن أحد أساليب تدمير الكتب هو تركها تموت وجعلها تختفي في أماكن مخفية ولا يمكن الوصول إليها. والبيبليوكلاست بدافع المصلحة يدمر الكتب ليبيعها أجزاء منفصلة ويحقق بهذا ربحا أكثر. فلنتصور أطلسا بالغ الجمال يعود الى القرن السادس عشر يحتوي على 150 خارطة مرسومة باليد يكلف حوالي100 ألف دولار. صاحب المكتبة الشريف لا يبيع الخرائط التي يجدها مجزأة أو التي أخذ عنها نسخا غير كاملة لا نفع فيها. أذكر سيدا يدعى سالومون كان لديه قبل أن يتوفى محل في الشارع التاسع بنيويورك وكان يؤكد انه مخرب آثار ديمقراطي ويقول لك "ألا تستطيع أن تحصل على وقائع نورمبرغ؟ أنا أجد لك نسخة غير كاملة، أفرقها وأبيع اللوحة مقابل 100 دولار." ولكن إذا كان التاجر الفاسد يدمر أطلسا ثمنه 100 ألف دولار ويبيع خرائطه متفرقة كل خريطة بسعر 750 دولارا للقطعة الواحدة (ويكفي أن نقرأ الفهارس لنعرف أن هذا يحدث) يربح 250 ألف دولارا . طبعا النسخة الكاملة التي تظهر في السوق فيما بعد ستكون أكثر ندرة وستكلف الضعف، والخرائط المفصولة كذلك. هكذا يدمر المرء أعمالا ذات قيمة لا تقدر بحيث يجبر الجامعين على القيام بتضحيات يصعب تحملها ويرفع من قيمة الخرائط المفصولة. لا توجد وسيلة لتجنب هذه النزعة الأرستقراطية لتدمير الآثار. إقترح أحدهم وثيقة شرف بين أصحاب المكتبات وبين هؤلاء

والجامعين على أن لا يشتري أحد أو يبيع خرائط مفصولة، ولكني وجدت منذ بضع سنين خريطة لكورونيلي بسعر مناسب ولم أستطع مقاومة إغراء إقتنائها في مكتبي، من الواضح أني حاولت إقناع نفسي بأنها دارت في السوق مفصولة منذ عدة سنين ربما، وبالنتيجة، لست مسؤولا عن تدمير عمل كامل" (9).

إن المدمرين على النقيض من جامع التحف المدمر ينطلقون من شخصية إستبدادية جذورها نجدها في أساطير الخلق والفناء القيامية. تكون السياسة والآيديولوجيا في النزعة الإستبدادية خادمة للطقوسيات التي تصر على إعادة خلق التأريخ بالطرق الأكثر تناقضا: الترغيب الجماعي، التمييز الإجتماعي، تلفيق اليوتوبيات الألفية، الإستبداد الجلي، البيروقراطية، المطلق، رفض ذاكرة الآخر (10). حتى المجتمعات الديمقراطية يمكنها أن تكون إستبدادية إستبدادا مفرطا وتدمر نفسها بإختزال هويتها الى مشروع إقصاء متطرف وتحريضي. وفقا لما تقوله (ريبيكا كنوث) فإن قتل المكتبات Libricide، وهو مصطلح تستخدمه في أعمالها، هو "تدمير نظامي للكتب والمكتبات" يهدف الى إنكار الآخر مثل الإبادة الجماعية والإبادة الإثنية" (11).

الغريب أن المفنين خلاقون جدا. إن البيبليوكلاستيين (بتعبير آخر مدمرو الكتب) يتميزون بحقيقة أنهم يمتلكون كتابهم الخاص الذي يعتبرونه أبديا، وكما يقوم طقس التدمير القديم يمكن أن يسحب الشخص الملتزم به من الحالية ويعيده الى الأبدية. حين يعزو حماسُ شخصٍ متطرفٍ منزلةً مطلقةً لعمل ما سواء لكتاب ديني أو برنامج حركة دينية أو إجتماعية أو فنية أو سياسية فإنه يضعه ضمن إطار يشرعن مصدره الإلهي أو الدائم. يقدم لنا جورج أورويل في رواية 1984 دولة إستبدادية فيها دائرة رسمية وظيفتها إكتشاف ومحو أي ماض، يعاد كتابة الكتب والنسخ الأصلية تدمر في أفران مخفية لإنقاذ المجتمع من العدو.

إن مدمري الكتب عقائديون لأنهم يتعلقون بمفهوم عن العالم وحيد وغير قابل للرفض ومطلق ذي طبيعة إكتفائية يعتمد على نفسه، مكتف ذاتيا، لا محدود، غير زمني، بسيط ومعبر عنه بوصفه حالة نقية وغير قابلة للإفساد. هذا المطلق يطبق حقيقة مطلقة مغلقة على الأفهام.. إنها تعرف بطريقة مباشرة... بالتجلي. وبطبيعة الحال عندما لا يتطابق شيء أو شخص مع الموصوف تكون العاقبة إدانة ، مباشرة، وخرافية، ورسمية. إن الدفاع الثيولوجي عن كتاب

يعتبر قطعيا، ويتعذر رده، ولا يتحمل الإختلاف بلا ريب. فمن جانب لأن الضلال أو التأمل النقدي يعادل التمرد، ومن جانب آخر لأن المقدس لا يسمح بأية ظنون أو تنويهات. إنه يفترض جنة لأتباعه وجحيما كابوسيا حروقا لمنتهكي قدسيته. يوجد مظهر قطعي لا يسمح بأن تكون السيادة بمعزل عن الإيمان، ولا توجد هيمنة دينية أو سياسية أو عسكرية دون هيمنة ثقافية. أولئك الذين يدمرون الكتب والمكتبات يعرفون ما يفعلون وهدفهم واضح هو التخويف والتثبيط والتسفيل وتسهيل النسيان التأريخي وإضعاف المقاومة، وخصوصا، طبع الشك في الذهن ببطء.

لا يجب أن نتجاهل أن حقوق الإنسان الأساسية التي تنتهك في النزعة البيبليوكوستية عديدة وهي حق الكرامة، وحق كمال الذاكرة المكتوبة للأفراد والشعوب، وحق الهوية، وحق الحصول على المعلومات، وحق التحقيق التأريخي والعلمي الذي تجعله الكتب ممكنا.

==========

عنوان الكتاب:

Histoire universelle de la destruction des livres- Fernando Bàez. Fayard editions, 2009

الهوامش:

1) Goethe, J.W.,poesie et vérité,IX, I.

2) أفهم الأسطورة على أنها كل شيء يحيلنا الى القصة المقدسة لشعب محدد ويكون هذا الشيء ذا صلة بزمن أصلي ومسوغ للمعنى الطقوسي لنشاط ما.

3) كان فرويد مؤيدا لفكرة وجود غريزة مدمرة، وكان يتحدث عن Eros غريزة شهوة تخص الحب وغريزة تانتوس Thanatos (في الميثولوجيا الإغريقية يؤدي تانتوس دورا يماثل دور مَلَك الموت في الديانات السماوية-المترجم) تسوغ الإعتداء والتدمير. بعض النصوص التي كتبها عن الغرائز (أو Pulsions حسب الترجمة الفرنسية) تستحق أن يُدقق فيها. النص الأول هو (الغرائز ومصير الغرائز) 1915 يعرض تصورات مثيرة للإهتمام. إن الغريزة بالنسبة

إليه داخلية وتستجيب للمؤثرات بوصفها غريزة فريدة، وليست وقتية بل مستمرة. كان يرى أن الحاجة الثابتة لا يمكن أن تكون في حالة توازن إلا بالإشباع، إنها تتصرف كعامل محرك عرفه فرويد بوصفه ذا خاصية إسقاطية، وغاية، وموضوع، ومصدر جسدي. النص الثاني (تأملات راهنة في الحرب والموت) 1915 حيث يذكر الغرائز ليفسر الحرب العالمية الأولى. إستعاد فرويد هذه الأفكار في (الإنحراف في الحضارة) 1930 محاولا حتى أن يفسر العقل الذي تعزى إليه الثقافة. ثبت بأن الأهواء الغريزية الفطرية أكثر قوة من المصالح العقلانية، وأن قمع الغرائز أو الغرائز التدميرية بوساطة الثقافة- عبر القوانين أو عوامل أخرى- يثير حاجة إنسانية غريبة للتحرر والإنتقام ضد القمع المفروض، إلا أنه بعد سنوات سمى نظريته عن الغرائز (ميثولوجيا التحليل النفسي) لأنه لم يقتنع بالعديد من التفاصيل.

4) تنامت النزعة التدميرية البشرية. عدد الحروب تناسب طرديا مع التقدم الحضاري. بين عامي 1480 و 1499 لا توجد سوى 9 معارك أما بين عامي 1900 و 1940 أُحصيت 892 حربا، وفي القرن الحادي والعشرين بعد فترة المواجهة ثنائية القطب نرى مزيدا من تنامي التوتر والخوف والقلق.

5) بإنتظار أن يتقرر فيما إذا كانت الكتابة الأولى في وادي الرافدين أم في مصر الفرعونية يناقش الخبراء الآن نقطة معرفة إن كان نظام الكتابة الأول المركب قد ظهر في الألف السادس قبل الميلاد في ما يسمى أوربا القديمة. فلنتذكر بأنه في نهاية العصر الجليدي الأخير شقت موجة بشرية عظيمة طريقها عبر جبال بيرينس والألب والكاربات والأورال. هذه المجموعات، حسب رأي الآثارية ماريا جيمبوتاس (1921-1994)، أنشأت ثقافة طورت الكتابة. هيمنت على مركز البلقان في بداية المرحلة الشالكوليثيكية. تم إكتشاف 2000 قطعة فخارية وكذلك قطع محفورة في موقع فينسا، وهو موقع آثاري على بعد 14 كيلومترا من بلغراد على ضفاف الدانوب، تبين لنا بأنه في ذلك المكان مورست كتابة طقوسية ذات خاصية دينية. يرون اليوم بأن القطع التي تظهر عليها علامات خطية تمثل عبادة وتعرفوا على أكثر من 200 علامة مفردة بضمنها قيم عددية. إن الأكثر إثارة للدهشة هو أن هذه العلامات عثر عليها في الكتابة الخطية A لجزيرة كريت الأسطورية.

6) Debray, R, cours de mediologie generale.

7)Borges, J.L. Borges oral.

8)حاولت كل جماعة أو أمة أن تجعل رموزها شرعية بوصفها شكل تعبير يمكن التعرف عليها. الأسماء التي أطلقت على هذه الرموز متنوعة: أعتبرت كنوزا وأعتبرت شيئا يبعث على السرور، وفي إتفاقية لاهاي لعام 1945 إكتسب تعبير "ثروات ثقافية" شعبية عالمية. عرف فريق من خبراء اليونسكو الإرث الوطني بحذر شديد على النحو التالي بوصفه "المجموع، المحلي، المناطقي، الوطني، القاري، أو العالمي للثروات المنقولة وغير المنقولة، المادية وغير المادية (أو غير الفيزياوية)، سواء كانت ملكية خاصة أو لمؤسسات أو هيئات عامة أو شبه عامة، لها قيمة إستثنائية من وجهة النظر التأريخية أو الفنية أو العلمية أو الحياة الإقتصادية أو الإجتماعية، وبإختصار، قيمة ثقافية، وبالنتيجة تستحق أن تحفظ للأمم والمجتمعات العالمية وأن تعرفها الشعوب عبر الأجيال".

إثناء المؤتمر العالمي حول السياسة الثقافية الذي إنعقد في المكسيك عام 1982 جرى التأكيد على الإرث الوطني الثقافي لشعب ما يشمل "أعمال الفنانين والمعماريين والموسيقيين والكتاب والحكماء وكذلك الإبداعات مجهولة المؤلف التي ولدت من الروح الشعبية ويشمل القيم التي تعطي معنى للحياة. إنه يضم الأعمال المادية وغير المادية التي تبرز إبداعية هذا الشعب من لغات وطقوس ومعتقدات وأماكن ونصب تأريخية وأدب وأعمال فنية وأراشيف ومكتبات".

9) Eco, Umberto, «Deseur, poseer y enloquecer» El Malpensante, N° 31, 16 JUIN-31 Juillet 2001, pp. 55-58.

10)Cf. Todorov, T., Memoire du mal, tentation du bien.

11) KNUTH, R, Libricide: The Regime-Sponsored Destruction of Books and Libraries in the Twentieth Century.

12)Reichholf, J. H., L'Emergence de L'homme.

13)STACE, Silves, III, III, 31-39.

.Ovide, Les Metamorphoses, xv, 87 1f(14

Hume, D., Enquiry concerning human understanding (1748), (15

.section x II, part III, 132

المكتبة الوطنية

دار الكتب والوثائق

واجهة دار الكتب والوثائق المحترقة

1

المكتبة الوطنية التي كان يتوجب علي زيارتها بناية من ثلاثة طوابق مساحتها 10240 مترا مربعا أنشئت العام 1977 مزينة بالمشربيات من جميع الجهات. عندما وصلت كان تمثال صدام حسين لا يزال قائما وهو يرفع يده علامة التحية ويضم بيده اليسرى الى صدره كتابا (ربما كان صعبا على المرء أن يصدق ولكن صدام حسين ككل الطغاة كان قارئا نهما). أطيح بهذا التمثال فيما بعد ككل التماثيل الأخرى. إستطعت من بعيد أن ألاحظ أن الواجهة بدت عليها آثار الحريق من الوسط والنوافذ قد نسفها الحريق بقوة الى درجة أن المكان كله كان يبعث على التشاؤم. رأيت من خلال المدخل المحمي من الشمس بإفريز خط على مقدمته إسم المكتبة عشرات العمال والخبراء يعملون في الداخل. كان الضوء المتغلغل من الفتحات يسمح برؤية آلاف الأوراق متناثرة على الأرضية. دمرت قاعة القراءة وحاويات البطاقات التي تضم فهارس جميع الكتب والرفوف تدميرا كاملا.

كان واضحا أن البناء تأثر بشدة الى درجة يتصور المرء معها أنه آيل للسقوط ولا يتحمل أقل هزة. قال لي مستخدم بصوت هامس وبعد تردد يصعب تفسيره بأن المكتبة لم تتعرض للهجوم مرة واحدة بل لمرتين وكذلك تعرضت للنهب مرتين ما أثار دهشتي لأني لم اقرأ هذه المعلومة في أي من التقارير السابقة. كانت الأرضية لا تزال مغطاة بالرماد وكانت الحاويات المعدنية فارغة.

2

بعض الوقائع المختلفة سبقت نهب المكتبة. قصفت بغداد بقنابل MOAB وصواريخ دمرت 200 بناية وعشرات الأسواق والمتاجر. جرت عملية (تحرير العراق) طوال الأيام الأخيرة من شهر آذار 2003. في 3 نيسان بدأت المعارك في مطار صدام حسين على مبعدة عشرة كيلومترات عن مركز بغداد. في يوم 7 نيسان دخلت الدبابات الى الشوارع. في 8 نيسان سيطرت القوات الأميركية على أحياء معينة من بغداد. ذلك اليوم في زاوية من نهر دجلة بين جسري الجمهورية و 14 تموز كان الهجوم أكثر ضراوة. كانت الفرقة الثالثة مشاة تتقدم على الضفة قادمة من الجنوب فيما كان العراقيون يحاولون الفرار نحو الشمال ومتهيئين لنسف جسر الجمهورية لكن القتال حدث لفترة قصيرة لمدة ساعتين من الساعة السابعة والنصف الى الساعة التاسعة والنصف وإمتلأت الشوارع بدبابات إبرامز M1. تم الإستيلاء على القصرين الرئاسيين الأكثر أهمية وكذلك على عدد من الوزارات مثل وزارة الخارجية ووزارة الإعلام. وضع العشرات من الجنود للحراسة أمام وزارة النفط التي لم يفقد منها حتى ولا قلم واحد.

كان مركز المقاومة في جنوب المدينة حيث قاتل (الفدائيون) بإستماتة. في لحظة معينة فجرت مدفعية الحلفاء مخزن سلاح وذخيرة مخبأ تحت الأرض مغطى بالرمل على ضفة دجلة. هذه الهجمات أشاعت حالات عامة من الفوضى وإنتشرت الشائعة بأن نظام صدام حسين سقط وأن الرئيس فر مع أبنائه. لم يكن يوجد أثر للشرطة وكان الجنود الأميركيون قد تلقوا أمرا واضحا بعدم إطلاق النار على المدنيين.

في يوم الأربعاء 9 نيسان أطيح بتمثال صدام حسين في الساحة المركزية ونشر جندي أميركي العلم على وجه التمثال ثم بعد هنيهة صحح عمله بوضع العلم العراقي مكانه. عندما إنتشرت

هذه الصور وتأكدت الإشاعة غزا الشوارع دون أية سيطرة سيل من البشر حاصرته عشر سنوات من الحصار الإقتصادي وديكتاتورية قاسية. إستهدفت أعمال النهب أول مرة القصور ومساكن القادة العراقيين وقد أخذت حتى أسرَّة المستشفيات. تسلح التجار بالمسدسات والبنادق وقضبان الحديد ليحموا محلاتهم ويطردوا اللصوص خصوصا الشبان منهم والنساء والأطفال. تعرض العديد من الأماكن التي تعتبر بنظر الناس رموزا للنظام لعنف أعمال النهب خلال يومي 9 و 10.

في يوم 10 نيسان إستدار الحشد نحو المكتبة الوطنية التي لم تكن محمية. في البداية جرى الأمر بحذر وترو ثم ساد التهور والفوضى. نساء ورجال، شبان وشيوخ، حملوا كل ما يستطيعون حمله بطريقة إنتقائية كما لو كانوا في طريقهم الى الدراسة. المجموعة الأولى من السلابة كانت تعرف أين تجد المخطوطات الأكثر أهمية وتعجلوا حملها. مجاميع أخرى، جائعة، ومليئة بالحقد على النظام الذي جثم على صدورها وصلت في إثر المجموعة الأولى وسببت الكارثة النهائية. كان أفراد الحشد يركضون في جميع الإتجاهات حاملين أنفس الكتب، وكذلك النسخ المصورة، وبنود الورق، والحواسيب، والطابعات، والأثاث. خربشوا على الحيطان "الموت لصدام" و "تبا لصدام" و "صدام الكافر"، والغريب أن مصورا صور كل هذا بكاميرا فيديو ثم إختفى كأن شيئا لم يكن.

إنفلتت نزعة تهديم النفائس بعد أسبوع ففي يوم 13 نيسان، دون نطق أية كلمة، نزلت مجموعة صغيرة من حافلة كبيرة زرقاء لا تحمل لوحة تعريف رسمية وقامت، وقد شجعتها سلبية العسكريين، برش الرفوف بالوقود قبل أن تشعل فيها النار. من الواضح أيضا أن البعض قد كدس أكواما من الكتب على شكل محارق ليضرم بها النار. وفي رواية أخرى أن البعض إستخدم أعواد ثقاب مصدرها عسكري وهذه الرواية تؤكدها دلائل معينة. خلال بضع ساعات كان يمكن رؤية عمود من الدخان من مسافة أربعة كيلومترات وهكذا إختفت المجلدات في هذا الحريق. من بين أضرار أخرى إحترقت التجهيزات القديمة ومجاميع المطبوعات الدورية. لم يبق شيء في الطابق الثالث حيث كانت توجد الأراشيف الميكروفيلم. كانت الحرارة، كما إستطعت أن أتأكد، من الشدة بحيث أتلفت الأرضية الرخامية، مسببة أضرارا خطيرة في السلالم الكونكريتية والسقف. إثناء الهجوم نفسه تم تدمير طابق المكتبة الثاني وأراشيف العراق

الوطنية التي كان يديرها فريق من الموظفين مكون من 85 شخصا. إختفت 10 ملايين وثيقة بضمنها التي تعود الى الفترة العثمانية مثل السجلات والفرمانات.

الصحفي روبيرت فيسك الذي كان شاهدا على هذه الوقائع علق عليها في عمود أصبح مشهورا:

"بالأمس أحرقت الكتب. وصل النهابون أولا، ثم الحراقون. كان هذا هو الفصل الأخير من نهب بغداد. أحيلت الى رماد بدرجة حرارة 3000 فهرنهايت المكتبة الوطنية والأراشيف الوطنية، وهي كنز لا يقدر بثمن مليء بالوثائق العثمانية التأريخية، بما فيها الأراشيف الإمبريالية. لقد رأيت النهابين... أحدهم سبني حين حاولت أن أنقذ مجموعة من كتب الشريعة الإسلامية من يد طفل لا يتجاوز عمره عشر سنوات. من بين رماد التأريخ العراقي عثرت على ملف أوراقه تتطاير في الهواء. كانت هذه رسائل من بلاط الشريف حسين في مكة والتي أعطت الإشارة ببدء الثورة العربية ضد الأتراك موجهة الى لورنس العرب والحكام العثمانيين في بغداد.

والقوات الأميركية لم تفعل شيئا. كل شيء كان يتطاير فوق الساحة المليئة بالقاذورات: رسائل توصيات وطلب ذخيرة للقوات، وتقارير حول سرقات الإبل وحول الهجمات على الحجاج، وكل ذلك مكتوب بخط دقيق. أمسكت بين يدي البقايا الأخيرة للتأريخ العراقي المكتوب. لكن، بالنسبة الى العراق، هذه السنة هي "سنة الصفر". لقد مسحت الهوية الثقافية العراقية بتدمير الآثار في المتحف الوطني العراقي هذا السبت، وحرق الأراشيف الوطنية، وبعدها المكتبة القرآنية. لماذا؟ من أشعل النار؟ لأية غاية مجنونة دمر كل هذا الإرث؟ (1).

بعد هذا النهب الكارثي لم يعد يوجد شيء نضيفه. شرح دونالد رامسفيلد وزير الدفاع في الولايات المتحدة قائلا: "الناس أحرار في إقتراف السرقات. لا يمكننا منعهم من ذلك". لقد شكى مدير المكتبة السابق بحنين: "لا أتذكر مثل هذه البربرية منذ عهد المغول" وهو يشير الى غزو بغداد من قبل قوات هولاكو حفيد جنكيز خان في العام 1258 الذي دمر كل الكتب برميها في نهر دجلة. أدلى موظف آخر في المكتبة بهذا التعليق: "قيصر يدمر الكتب من جديد" هذه الكلمات ذكرتني بمقطع من دراما جورج برنارد شو (قيصر وكليوباترا):

روفيوس: ماذا حدث يا صديقي؟

ثيودوتوس: (نازلا الرواق وهو يركض) نيران سفنك طاشت. أولى عجائب الدنيا السبع تتلاشى. مكتبة الإسكندرية تشتعل فيها النيران.

روفيوس: باه! (صعد الى المعبد الصغير، وقد إرتاح لما سمعه غاية الراحة، ليلاحظ تحضيرات القوات الموجودة على الساحل.)

قيصر: هذا كل شيء؟

ثيودوتوس: (غير قادر على أن يصدق ما يسمع) كل شيء؟ يا قيصر أتريد أن يلحق بك العار كجندي بربري بالغ الجهل الى درجة أنه يجهل قيمة الكتب؟

قيصر: يا ثيودوتوس أنا نفسي مؤلف وأنت القائل خير للمصريين أن يعيشوا حياتهم بدلا من أن يحلموا بمساعدة الكتب.

ثيودوتوس: (وهو يركع مأخوذا بإنفعال أدبي حقيقي، بالشعور الملتهب للباحث عن العلم) يا قيصر، ذات مرة كل الأجيال البشرية العشرة ، كل العالم إغتنى من كتاب خالد واحد.

قيصر: (وهو على إصراره) إن لم يعجب هذا الكتاب البشرية فإن الجلاد يحرقه.

ثيودوتوس: دون تأريخ فإن الموت سيضعك الى جوار أكثر جنودك وضاعة.

قيصر: سيفعل الموت هذا على أية حال. لا أطلب قبرا أفضل.

ثيودوتوس: الذي يحترق هناك هو ذاكرة البشرية.

قيصر: إنها ذاكرة سافلة تلك التي تحترق.

لتقدير الخسائر لا يزال يدور نقاش محتدم لم ينته بعد. في معرض الكتاب في فرانكفورت أكد الدكتور طاهر خلف جبور البكاء الذي عمل للحكومة العراقية الإنتقالية في العام 2004 بأن 17000 عمل قد دمر، وحسب قول كمال جواد آشور الأقل تفاؤلا فإن 50 بالمئة سرق و 50 بالمئة دمر (2). أشار المؤرخ الكردي سعد إسكندر الذي عين مديرا عاما للمكتبة:

"فقدنا 60 بالمئة من سجلات ووثائق الدولة، وهي إما أحرقت أو أتلفت بالماء. (الوثائق المفقودة تعود الى كل الوزارات وكل دوائر الدولة منذ أواخر القرن التاسع عشر والى مرحلة صدام. فيما يخص الكتب أرى أننا فقدنا 25 بالمئة منها وهي أساسا الكتب النادرة والأثمن (3)".

بالنسبة لي أقدر، مستندا الى التقارير العراقية التي كتبها مشتغلون بالمكتبات والى ملاحظاتي، بأن أكثر من مليون مجلد قد إختفى في أعمال النهب والحرائق. كانت المكتبة الوطنية واسعة وكان يوجد العديد من المجلدات بعدة نسخ. المستودع الرسمي كان في فترة من الفترات مصدرا للإقتناءات: المطبوعات والدوريات والأراشيف. كان يطبق مبدأ توفير خمس نسخ من كل عمل مع أن الوضع الإقتصادي قد قلل هذه الممارسة بشكل كبير في العامين 2001 و 2002. خلال عقود أغنت آلاف الهبات مجموعة المكتبة.

لا بد لي من أن أوكد، وليس دون حزن، على أنه قد إختفت طبعات قديمة من ألف ليلة وليلة، وبحوث في الرياضيات لعمر الخيام، وبحوث فلسفية لإبن سينا، وإبن رشد، والكندي، والفارابي، ورسائل الشريف حسين من مكة، وأعمال أدبية لكتاب عالميين مثل تولستوي وبورخس وساباتو وبول أوستر ومواجيز تأريخية عن الحضارة السومرية.

في الشوارع والمحلات كان يمكن للمرء أن يحصل على كتب المكتبة الوطنية بثمن بخس، وفي أيام الجمع كانت تباع هذه الأعمال في شارع المتنبي ولقد رأيت جزءا من موسوعة عربية يحمل الختم الرسمي على صفحته الأولى والذي لم ينجح شخص ما في محوه. كذلك وجدت مجلدا عنوانه (مصحف رش) ويعني الكتاب الأسود حول الثقافة اليزيدية وهي جماعة دينية تعيش في شمال العراق ويتحدث الكتاب عن هذه الإثنية الغريبة التي عرف أفرادها بعبادتهم للشيطان بسبب إيمانهم بالملك طاووس. يعتقد اليزيديون أن الله سامح إبليس الذي أصبح يعيش الى جوارهم منذئذ. لأسباب رمزية يكرهون اللون الأزرق ويبنون المعابد في أماكن يحجون إليها ولا يذهبون الى مكة بل الى قبر الشيخ عادي قرب الموصل.

إن الأضرار التي لحقت بالمكتبة أضرت كذلك بمقر الأراشيف الوطنية التي يضمها المبنى نفسه والذي تدل الآثار على مدخله على حدوث حريق مرعب، في الداخل كل شيء مدمر، وربما كان عدد الوثائق التي إستحالت الى عدم يبلغ 4 أو 5 ملايين وثيقة.

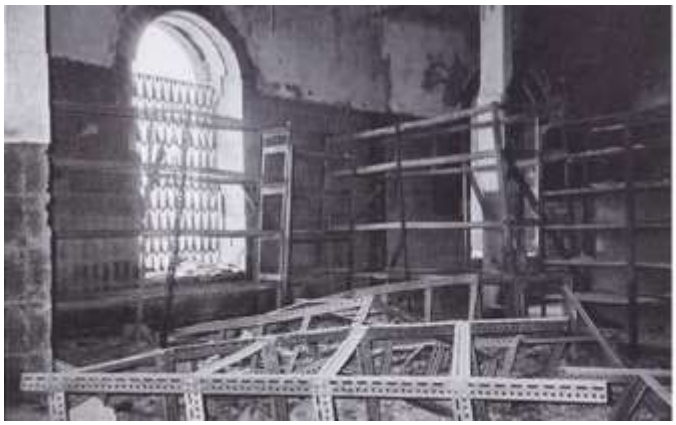

مكتبة بيت الحكمة

3

لحسن الحظ قدر للعديد من الكتب أن تنقذ وتنقل الى أماكن سرية أو مناطق بعيدة عن المكتبة. إن قصة هذا الإنقاذ للمجلدات تؤكد حب العراقيين العميق الذي يكنونه لثقافتهم. الى نهاية العام 2005 مثلا ظلت آلاف الأعمال موضوعة أكواما غير مصنفة في الطابق الأول والطابق الثاني. كانت هناك دون حماية ولم يعد الجنود يحرسون البناية. هذه المهمة عهد بها الى مستخدمين شيعة.

علاوة على هذه الكتب أمر السيد عبد المنسم الموسوي (هكذا ورد الإسم في النص –Abdul Muncim) أتباعه بجلب الكتب، وحمل 300 ألف عمل بشاحنات الى مسجد الحق حيث وضعت أكواما وصل إرتفاع بعضها الى السقف. لا أتردد في القول أن الظروف كانت أكثر سوءا وقد أضرت بها الحشرات بأنواعها ولكن حامي الكتب محمد الشيخ حاجم رأى أنها كانت ستدمر بشكل أسوأ لو تركت حيث كانت. من المثير للفضول أن المجموعة التي أنقذت هذه الكتب أكدت أنها تنتمي الى الحوزة العلمية. الكتب مقدسة بالنسبة الى رجال الدين هؤلاء،

ووفقا لدينهم الإسلام فإن القرآن هو تجسيد لله ولهذا فهم يحرصون على حفظ الكتب، ويكفي أن إحتراق نسخة واحدة من القرآن مثلا تتسبب بنزاع.

كذلك وضع 100 ألف مجلد في مواقع تابعة لوزارة السياحة. أخيرا أراني العديد من المثقفين كتبا مخفية في بيوتهم بإنتظار إستتباب النظام و عودة "الكفار" الى بلدهم. إشترى رسام لم يفصح عن إسمه من الأسواق الشعبية عشرات الأعمال لغرض المحافظة عليها. القسم الأكبر من الكتب وضعت في المدينة التي كانت تسمى مدينة صدام واليوم تسمى مدينة الصدر وهي حي محروم يعيش فيه أكثر من مليوني شخص مكومين في متاهة من الأزقة ولم ينالوا إلا القليل من الإهتمام.

في نيسان 2004 أرسل حافظ الكتب النرويجي رينيه تيجلير الى العراق لإنقاذ الكتب المتضررة من تدخل الإطفائيين في المكتبة الوطنية. إن الرطوبة كما نعرف تسهل ظهور الفطر المدمر. حاول الخبير تجليد الأعمال وهي عملية تتطلب في بغداد وفي درجة حرارة 50 ليس أقل من ثمان ساعات. واحدة من مراحل العملية تتكون من وضع كتل الكتب المجلدة في قاعات مفتوحة النوافذ لتفقد رطوبتها عند التعرض للهواء. ودائما كانت هذه العملية تفسدها. الأغلفة قاومت التلف لكن الأوراق نفسها تلفت.

أنقذت معجزة مجاميع أخرى من الكتب في بغداد (4). حفظ جامع القادرية كتبه التي تمثل الطريقة الصوفية الأكثر شهرة في العالم ومكتبته يديرها ساجد عبد الرحمن الكيلاني الخلف السادس عشر لعبد القادر الكيلاني. لم أتمكن من رؤية ما في الداخل ولكني فهمت بأنها تضم 65 ألف كتاب وألفي مخطوطة سرية. أما مجموعة دير الآباء الكرمليين فلم تمس وفيها 120 مخطوطة لـ Al-Usradh ماري الكرملي، ولكن مكتبة الهداية التي وجدتها منهوبة لم يحالفها الحظ إذ لم يتبق سوى نصف مخطوطاتها البالغة 600 مخطوطة.

جندي أميركي يتصفح كتابا من بقايا الكتب

4

لم يثر تدمير المكتبة الوطنية الضجة الإعلامية التي أثارها في العالم نهب متحف الآثار في بغداد (5). هذا المتحف كان عبارة عن بناء فخم ببرجين جانبيين بلون رملي ويقع قرب المحطة وكان حينذاك محروسا بدبابة كتب على ماسورة مدفعها "تحية من الشعب الأميركي!". نزل خبر هذا النهب نزول الصاعقة على العالم كله في يوم 12 نيسان 2003 وقد ظُن خطأ بأن 170 ألف قطعة قد فقدت حينئذ. الحقيقة هي أن 25 قطعة ذات أهمية عظيمة فقدت من بينها سيدة الوركاء وكذلك 14 ألف قطعة أقل أهمية.

لقد كانت الفضيحة من الفظاعة بحيث كان على الزائر أن يعرف نفسه ويخضع للتفتيش عند الخروج من المتحف. كان يعمل هناك الكولونيل ماثيو بوجدانوس مكلفا بالتحقيق في الأحداث وإستعادة القطع المسروقة، وهو ضابط مسؤول ومثابر يساعده عالم الآثار دوني جورج ووكالتي الأف بي آي و السي آي أي وهيئات مختلفة للدراسات الإسلامية ومجموعة من الجنود. ما كان لصالح بوجدانوس، وهو محام، معرفته بالآثار القديمة، ولكنه قبل بضع سنوات تعرض الى محاولة قانونية لم تفلح في إلغاء دوره كوكيل في مانهاتن ضد سين "بافي" خطيب المغنية جينيفر لوبيز.

كانت تجهيزاته مكونة من عدة مناضد وضعت فوقها وصنفت القطع المستعادة والتي كان عددها يزداد يوما بعد يوم. صدر عفو عن كل حائز لعمل يرغب بإعادته طوعا، ولم يكن نادرا

رؤية صبي صغير يقترب من الأبواب ويضع على الأرض منحوتة ويختفي. القاعات لم تحرق يوم النهب ولكنها خربت بكل بساطة. مئات القطع كانت مكسرة وسمحت لي جولة في الممرات أن أتفحص بعض القطع التي لم تسرق ولكن النهابين كسروها عند محاولة نقلها. في قاعة العرض الكبرى سرقت مخطوطات وكذلك 236 قطعة من الأواني الخزفية ولم ينتبه النهابون لوجود قطع أخرى. نجح النهابون في الدخول الى خمس مستودعات من أصل ثمانية بعد كسر الأبواب وقد حطموا بعض القطع. تركوا، وهم في عجلة من أمرهم، قطعا أخرى مهيئة للسرقة داخل أكياس. لم يترددوا عن الفرار بالمايكروسوبات والمواد الكيمياوية والمواد الآثارية التي كانت في قسم الترميم. في الطابق الأول حيث توجد الأروقة جرى تحويل عشرات القطع من مكانها مخلفة المكان في حالة فوضى لا توصف. من أصل 451 عارضة زجاجية كسرت أو تضررت على الأقل 28 عارضة. أخذت من المكاتب وثائق وكتب وحواسيب ومناضد وكراس، وفي الواقع، أُخذ كل ما يمكن حمله.

نؤكد هنا على أن كتب المكتبة الوطنية لم تكن وحدها التي دمرت أو نهبت ففي متحف الآثار دمرت مكتبة متخصصة في ميدان مثل وادي الرافدين، وأكثر من هذا، أنتزعت من عارضاتها الزجاجية أو كسرت أو أخذت ألواح طينية سومرية عمرها عدة آلاف من السنين. لحسن الحظ ظل 100 ألف لوح سليما فالغرفة التي كانت موجودة فيها لم يمكن فتحها، وكتابات سيبار Sibbar(6) أمكن المحافظة عليها أيضا.

في 22 آيار غادرت بغداد لمهمات أخرى في فينا ولندن، وبعد شهر فهمت ان ORHA مكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية عين بيرو كوردوني وفيرجوس موير والضباط أ. جي. كيسيل وكوري ويجينير وكريس فارهولا وويس سومنر أعضاء فرقة الشؤون المدنية في الجيش. أعلنت هذه المجموعة إعادة إفتتاح متحف الآثار في غضون شهر أو شهرين وكذلك إستعادة عدة قطع مفقودة. لاحظت أن أحدا لم يتحدث مجددا عن ما حصل أو عن المسؤولين الحقيقيين. من جانب آخر وفي 3 تموز كلف معرض عبثي لكنوز نمرود لمدة ساعتين حياة جندي وصحفي وعرض الى الخطر إرثا ثقافيا نادر الأهمية (7). لم أكن في شك من أن مأساة أخرى في طريقها للحدوث.

بالإضافة الى المكتبة الوطنية والمتحف الوطني ضربت الكارثة الثقافية مراكز أخرى. مجموعة مكونة من 5000 مخطوطة إسلامية من مكتبة الأوقاف الواقعة على بعد خمسين مترا من المكتبة الوطنية لم يعد لها وجود (8). دمرت النار الموقع الذي تعرض بعدها لأعمال النهب المعتادة. إختفت على الأقل نصف المجموعة، والبناية كانت في حالة يصعب معها إعمارها. الأسلاك متدلية، والدعائم جردت والأعمدة على وشك الإنهيار. وضعت المجلدات المنقذة، حوالي 5300، تحت حراسة موظفي المكتبة الخائفين على حياتهم والمحبطين نفسيا والذين فقدوا الإيمان بأي حل يأتي من أية منظمة. حسب ما قاله لي الأشخاص القليلون الذين قبلوا التحدث معي فقد قتل الجنود الأميركيون الحارس عند المدخل دون سبب واضح إثناء حادث.

أكدت عدة شهادات بأن تدمير الأعمال وقع عندما دخل أربعة عشر أو عشرين مدنيا، عرب دون شك، الى المكتبة عنوة وكان يتبعهم شاب يحمل كاميرا. بعد أن سرقوا الكتب رموا رمانات فسفورية في الداخل، إحترقت عشرة أكياس من أصل 32 كيسا مليئة بالكتب وتلفت أكثر من 800 مخطوطة.

6

كان وضع الجامعات العراقية حرجا. علمت بأنه بعد يوم 8 نيسان المشؤوم هاجمت مجاميع من النهابين منشئات جامعة بغداد وأخذوا منها كل ما يستطيعون حمله. لقد جاءوا حتى على ظهر شاحنات غادروا مع مكيفات الهواء، ومواد المختبرات، وخزانات الأراشيف، والمكاتب، والمقارئ، والكراسي، والحواسيب، والطابعات، وأجهزة السكنر، والنسخ المصورة.. وعلاوة على ذلك، كما لو أن هذه الدرجة من التدمير لم تكن كافية، تم في هذا النهب والفوضى تدمير ملفات الطلبة، وقاعدة بيانات الأطروحات، والمونوغرافات، والشهادات مع الملاحظات والعناوين.

أعمال العنف هذه بقيت كعلامة لا يمكن محوها في ذاكرة الطلبة. يتذكر بعضهم، وهم يرون مراكزهم الدراسية المحترقة، ونوافذها المكسورة، وجدرانها المغطاة بالشعارات المعادية لصدام حسين، بأنه في بداية الهجمات سقط صاروخ قرب الجامعة، وبعد قليل، قال الأميركيون بأن الصاروخ سقط هنا خطأ. الحفرة التي خلفها سقوطه تشبه الحفرة التي يخلفها سقوط نيزك.

كان المشهد في الكليات خرابا. في كليات اللغات لم تعد المكتبة التي تضم أعمالا بالروسية والألمانية وأغلب المؤلفين الكلاسيكيين مثل دوستيوفسكي وتولستوي وتورجنيف وبوشكين وغوركي وغوته سوى كومة من الرماد في مجموعة في أكياس. رأيت مجلدا لفاوست محترق الحواف، وقد أنتزعت بعض أوراقه، وتضررت الأوراق الباقية بالنار. قالت لي فتاة جميلة محجبة، رفضت الكشف عن إسمها، بأن من أحرق هذه الكتب هم طلبة لأن الروس والألمان كانوا يتعاونون مع الديكتاتور صدام. إنه في الحقيقة توضيح غريب.

كانت الجدالات بين زملاء الكلية تدور حول إقالة أنصار النظام السابق والإنتخابات المتوقعة، وهما موضوعان كانا من أكثر المواضيع اليومية إلتهابا. عندما قمت بزيارة مختلف الأساتذة لم يكن أي منهم يرغب في التحدث إلي عن شيء آخر. من الواضح أن الضغينة تملكت الجميع والإعلانات على الجدران كانت تعبر عن آراء المعسكرين. جذب إنتباهي ملصق يرفض المحتلين وآخر يرفض الملصق الأول ويهدد بقتل من كتبه.

الموضوع الآخر الذي كان مدار النقاش كانت مبالغ الرواتب والمنح. كان الكثير من الطلبة الذين يستلمون منحا من الخارج لا يستطيعون الحصول عليها لأن البنوك لم تكن تعمل ، وعشرات الأساتذة لم تدفع لهم رواتبهم منذ إحتلال بغداد ما جعلهم غاضبين محبطين.

نجت المكتبة الطبية في جامعة المستنصرية من المناوشات الأولى، ولكن مكتبتها المركزية لم تنج وتعرضت للنهب دون تمييز. سمحت لنا جردة أولية لإثبات أن العديد من الأعمال إختفت ومعها الأثاث والمعدات الموجودة منذ زمن قديم.

إن تأهيل الأطباء الذي لعبت فيه المكتبة دورا معتبرا لأنها كانت تحوي مجموعة من أفضل نصوص الطب العربي في العصر الوسيط قد دمر، وما إستطعت ان أراه يكشف عن مقاصد المهاجمين الخبيثة. أغلفة منثورة على الأرضية كانت مؤشرا على أن الهمجيين قد خلعوها لتخفيف الحمل.

قال لي شاب من جامعة بغداد يعيش في حي المنصور: " ذات يوم، تعرف، سيشعل أحدهم النار في مكتبة الكونغرس بالولايات المتحدة ولن تكون الخسارة يومها أفدح من الخسارة هنا".

هوجم بيت الحكمة. حسب ما ثبت لدي دمرت قطع المعرض المكرس للإمبراطورية العثمانية وأحرق جزء من المبنى يوم 11 نيسان. النهابون، الذين جاءوا على عجل صباحا، لم يبقوا شيئا ذا قيمة، ولكنهم عادوا بعد الظهر بهمة أكبر وهم مقتنعون بأن الأنفس لا بد موجود في مكان مخفي. ربما هاجموا قاعة القراءة بالرمانات اليدوية لأن هذا ما دلت عليه الجدران المتضررة. عندما وصلت كان قسم اللغة الأجنبية يظهر آثار النهب. الرفوف فارغة، والأرضية تغطيها الأوراق الممزقة. حسب الفهارس فقد 5500 مجلد من خدمة العلاقات الخارجية للمملكة المتحدة وكذلك خمس مجموعات من الوثائق الفرنسية حول الحربين العالميتين الأولى والثانية، ووثائق أميركية سرية حول إنقلاب 1940، ووثائق حول الجماعة اليهودية في بغداد، و 15 مجلدا حول الفترة العثمانية، و 15 مجلدا تعود للمحكمة الشرعية وسلسلة من الموسوعة البريطانية. من بين النصوص المفقودة أشير الى قرآن من القرن التاسع، ونسخة تعود الى القرن الثاني عشر من مقامات الحريري، والنصوص الأكثر أهمية لإبن سينا، ووقائع، وقصائد، ومسرحيات. على مبعدة شوارع قليلة من هذا المكان، كان هناك من يبيع البعض من هذه الكتب وأردت التحقق. في الواقع أن شابا إقتربت منه لم يتردد في أن يعرض علي من هذه الأعمال التي كان مصدرها بيت الحكمة دون شك.

إلتهمت الحرائق الطابق الثاني وحمل النهابون كل شيء: الحواسيب، والطابعات، والمصابيح، والمكيفات، والخزانات، والكراسي، والمكاتب، وحوامل الأقلام. لم يكن ممكنا التعرف على قاعة الموسيقى، وفي واحدة من الغرف يكاد المرء يعتقد أن قنبلة كبيرة إنفجرت. إحترقت الرفوف المعدنية الخالية من الكتب والورق وكذلك النوافذ والجدران. بعد ذلك بقليل قدمت سلطة الإئتلاف المؤقتة التي كانت تحكم العراق آنذاك 17 ألف دولار لإعادة جمع المجموعة، وهو مبلغ زهيد إذا أخذنا بنظر الإعتبار أن هذا المركز قبل الحرب كان يضم حوالي 100 موظف. بعد النهب قدمت بطريقة خسيسة 20 دولارا لكل أجير وهو ماولد الكثير من الغيض بين الموظفين.

المجمع العلمي العراقي وهو من المؤسسات العلمية الأكثر إعتبارا في الشرق عانى من خسائر فادحة. كان يضم في فترته الذهبية في موقعه بالوزيرية مخطوطات ودوريات وكتبا اجنبية ومجلات علمية وأدبية وأطروحات ومونوغرافات ومئات المئات من الكراريس. كان يوجد هناك مختبر مجهز بعشرين حاسوبا وطابعة، وقاعة للقراءة، ومكاتب جيدة التجهيز للباحثين. بدأ نهب هذا المجمع مع قدوم جنود أميركيين ودبابة. أنتزع العلم الذي كان يخفق فوق المبنى وبعد بضعة ساعات وبطريقة مباغتة هجم النهابون متهيئين لحمل كل شيء. لم يتركوا ولا حاسوبا واحدا أو مكتبا أو منظم فولتية ولا حتى طابعة. كانوا كالمجانين. بخلاف المراكز الثقافية الأخرى لم يحرق المجمع ولكن فقد النصف من ما مجموعه 60 الف مجلد وكذلك مئات المطبوعات المرسلة من مختلف أنحاء العالم بشتى اللغات. لم يجر الحفاظ على النسخ المصورة ما عدا البعض منها. لقد حافظت سياسة تبادل فعالة في هذا المجمع فيما مضى على مواكبة آخر المستجدات المعرفية التي كان يمكن للباحثين بفضلها أن يقدموا أفضل توثيق.

عندما طلبت فهارس المجموعة أُجبت بأنها من بين الأشياء التي سرقت وهكذا بدأ عملي في الجرد بداية سيئة. رأيت غرفا كومت فيها مئات المجلدات والأوراق ولكن هذه الفوضى لم يكن يبدو عليها أنها تقلق الأساتذة فعلى الأقل كان بإمكانهم تصنيف هذه الأعمال وصفها. إن مزق الورق كان جديرا بها أن تفزع أي مختص بالمكتبات ولكن ليس أناسا عاشوا أيام القصف والقتل والنهب الذي محا الأراشيف التي لم يسبق لها مثيل كأراشيف المؤرخ عباس العزاوي. تم إنقاذ مجموعة دار صدام للمخطوطات لأن مديرها أسامة ناصر النقشبندي أخفاها. في الموصل إختفت مكتبتا المتحف والجامعة.

8

فيما كنت نائما أو بينما كنت أحاول النوم تحت الملجأ الذي أعددته كيفما إتفق في موقع إيسين Isin الآثاري في منطقة إيشان بكريجات Ishan Bakrijat سمعت دويا يصم الآذان تبعه إطلاق نار مستمر في ليلة 19 آيار 2003 وعندما خرجت رأيت فعلا الجنود الأميركيين المعسكرين في المكان يركضون في كل إتجاه فقد أصابت سيارتهم الهمفي قنبلة مصنعة محليا تبين فيما بعد أنها مكونة من قطع مدفعية 155 ملم ومسامير. على مبعدة كان ثلاثون رجلا

يطلقون النار وبعضهم مزود بالقاذفات، ولكن مجموعة منهم إنفصلت ودخلت في الخرائب التي أخرجت منها قطعا على عجل. أعترف أني من شدة خوفي إنبطحت أرضا. الى جانبي إقترح عريف أن يُطوق الهمجيون. إستخف الجندي الأقرب إليه بالفكرة وأسكته معلقا: "حسن. إذهب أنت! لن أموت في سبيل بضعة قطع من الصلصال. لم آت من نيوجيرسي لحراسة هذه الخرائب. إطلب دعما!" مرت نصف ساعة على معركة أشباح كان فيها إطلاق النار يأتي من جميع الجهات، ثم أطلقت هيلكوبتر بلاك هاوك رشقة لم تقتل أو تجرح أيا من المهاجمين.

في اليوم التالي، بعد تلك الليلة البيضاء، رأيت أن الموقع لم يعد أكثر من حفرة فاغرة وعرفت ما كان يجري حقا. إكتشفت وأنا أطلع على الحفرة بأن مشغل التنقيب قد دمر. كما هو معروف أن العراق أحد بلدان الشرق الأوسط التي يوجد فيها العديد من المواقع المهمة، وعندما يفكر المرء بأنه على هذه الأرض بالذات ولد الكتاب، وولدت المكتبات وأول القوانين فإنه سيرتعب من فكرة أن الحرب والأحداث التي أعقبتها في آذار 2003 يمكن أن تعرض الى الخطر إكتشافات جديدة قد تغير رؤيتنا للتأريخ. في الحقيقة أنه في هذه المواقع توجد بقايا الثقافات السومرية والآشورية والبابلية والإغريقية والرومانية.

لم تكف المشكلة عن الظهور. في كانون الأول 2003 كان كل يوم يجلب أعمال نهب في الحضر حيث يوجد جزء من الإرث الثقافي للبشرية، وكولال جبر، وكويونجق (نينوى)، وتل سنكريح (لارسا)، وتل الذهب، وتل الجبيت، وتل الزابول، وتل جوخا، وتل موقاجار (أور)، وتل النمل، وأم العقارب... كان الوضع أقل دراماتيكية في الجنوب، كما تشير تقارير المعهد الشرقي في شيكاغو وجمعية ناشنال جيوغرافي، بسبب توفر قدر من الإستقرار فيه. ولكننا نعرف القليل عن أكثر من 600 تل لم تكتشف بعد حصار 1991 مع أن الإكتشافات كانت كثيرة إعتبارا من 1987. مكتبة إله الشمس تم إكتشافها في سيبار Sippar ونعرف أنه في نمرود سمحت الكنوز الجنائزية المكتشفة للعالم بأن يتأمل آلاف المجوهرات الذهبية والأحجار الكريمة.

في أم العقارب قرب الناصرية إكتشف علماء الآثار بضمنهم فاضل عبد الواحد مقبرة سومرية ضخمة أطلق عليها مدينة القبور في موقع زاره من قبل وليام هيز في العام 1886. كان الأموات مدفونين مع مجوهرات وتماثيل. إن ظهور مئات العقارب جعل الناس يسمونه هذا

المكان "أم العقارب"، واليوم تركت أعمال النهب آثارا كالتي شاهدها علماء الفلك على القمر: عشرات من الفوهات والمناطق المخربة، وهذا هو كل ما يمكن أن نراه فيها.

في تل المجلة كان المحقق مزاحم محمود والحارس إبراهيم عطا يحرسان مدينة نمرود القديمة. كان شاغلهما الأساس سلسلة الأنفاق تحت الأرض التي يدخل من خلالها النهابون كل ليلة حاملين عشرات القطع ومحطمين أخرى أقل أهمية. أكثر ما كان يرغب فيه هؤلاء هو الذهب، والأكثر مدعاة للحزن أنهم كانوا يكسرون الأواني التي تبدو لهم أقل قيمة. تعرض القصر الواقع الى الشمال الغربي الى التهريب الأكثر سفاهة. تأكدت من أضرار في الغرفة S (جنوب الباحة Y) وسرقت نقشات من الغرف B و I و S وفي إحدى حوادث إطلاق النار بين النهابين والجنود تخرقت الجدران بالرصاص.

كانت حالة نيبور على مسافة 200 كيلومتر جنوب شرقي بغداد مأساوية. كان النهابون ينشطون ليلا ونهارا وهم مسلحون، يحفرون كيفما إتفق ومن ثم يحملون ألواحا وقطعا فنية ويتركون على الرمل ما لا يهمهم. البعض منهم كان يتفاخر بعمله في القرية القريبة. أعلن الحارس الذي يحمي الموقع منذ سنوات عباس كرمود بأن هذا النهب قد أحال سنوات من التنقيبات الى عدم.

أُعلنت مؤخرا آشور Assour الواقعة في منطقة تسمى اليوم القلعة بإتجاه الشرقاط تراثا ثقافيا عالميا من قبل اليونسكو، وهذا لم يحمها من هجمات من كل نوع دون إنقطاع. هذا الموقع مهدد دوما. كانت آشور مدينة مهمة جدا وهي العاصمة الأولى لآشور ما ولد عند السراق شكا من أنها يمكن أن تحوي أشياء ذات قيمة لا تقدر بثمن.

في خرائب قصر Sennacuerib بنينوى كان الإتلاف واضحا. عشر سنوات من الحصارات منعت حصول العراق على العديد من الفرق الآثارية. الأضرار واسعة بكل تأكيد. دمرت النقوش، وتوجد حفر فاغرة في قاعات معينة. قرب خرائب بابل يظهر المتحف دمار نهب لم يفلح بالصدفة في تهديم البناء ولكن النيران وجدت لها مكانا فيه.

حدثت وقائع محزنة أيضا. في أور حيث كانت تنتصب مدينة إمبراطورية عظيمة مابين 2100 و 2000 ق م قام جنود فهموا أن النبي إبراهيم ولد هنا برفع قوالب من الصلصال ليأخذوها

الى بلادهم حيث إحتفظوا بها في بيوتهم دون شك إذا لم يكونوا قد باعوها كتذكاريات مقدسة، وأكثر من هذا خلفوا ورائهم نحتا محفورا على القرميد يقول "كنت هنا!".

كان النهب في أريدو (تسمى اليوم أبو شهرين) أقل خطورة. في (عبيد) وهي مدينة من ما قبل التأريخ، ترك النهابون آثارا تدل على دخولهم الموقع ولكن عدم وجود قطع للسرقة ثبط عزيمتهم، وفي جيرشو Girsou (تلو) شمال الناصرية حيث كانت توجد مدينة ما قبل التاريخ شكلت جزءا من مملكة لكش تواصل النهب، وفي لارسا (سنكير) لم تكن توجد حماية وكان النهب دائميا، وفي المدائن حفرت شعارات سياسية على الطاق. ودمرت النقوشات التي تمثل معركة كادش، وكذلك إستمرت السرقات في تل محمد.

كان النهب يتبع عملية دقيقة. ما أن تسرق الأعمال تقوم العصابة المنظمة تنظيما مشددا بخصوص إختيار العناصر بإخفاء القطع في حقائب أو صناديق أو حاويات إصطناعية، وهكذا تتواصل اليوم تجارة عالمية غير قانونية بوتيرة غير مسبوقة. تباع القطع المسروقة من خلال الأنترنيت وفي حالات معينة تعرض حتى على صفحات الويب. في يوم 11 حزيران أعتقل جوزيف برود مؤلف (العراق الجديد: إعادة بناء البلد لشعبه، الشرق الأوسط والعالم) لأنه كان يحمل معه ثلاثة أختام أسطوانية إشتراها مقابل 200 دولار. هذه القطع كانت لا تزال تحمل علامة IM (المتحف العراقي) إشارة الى المتحف الآثاري في بغداد. في هذا اليوم صودرت آلاف القطع في مدن مثل نيويورك وروما ولندن وموسكو وطوكيو وعمان ودمشق. بيعت بعض القطع أيضا لتمويل المقاومة في العراق.

لا أحد يتصور بأن أكثر من 150 ألف لوح مجهول إختفى خلال نهب المواقع. جريدة الصباح المقربة من الحكومة نشرت في العام 2004 ريبورتاجا أقرت فيه أن الجنود الإيطاليين الـ Carabinieri المشهورين سرقوا دون وازع من ضمير عشرات القطع الآثارية من المواقع الآثارية المكلفين بحمايتها. ما كان مجرد إشاعة أصبح اليوم حقيقة مؤلمة: المحتلون يسلبون البلد وتحت بصر المجتمع الدولي اللامبالي، يخرقون إتفاقية لاهاي لعام 1954 التي تلزم بلد الجيش المحتل بحماية التراث الوطني الثقافي للأمة الواقعة تحت الإحتلال. في منتصف آيار 2004 في ذي قار صادر موظفو الجمارك مئات القطع بضمنها ألواح محفورة

منقولة على ظهر شاحنة للقوات الإيطالية التي كانت تتوجه نحو الحدود غير المستقرة مع الكويت.

في آيار 2004 عندما إنهار جدار معبد نابو بسبب هيلوكوبترات القواعد العسكرية القريبة جدا تم تجميع بقاياه بإعتبارها زائدة. في تقرير صدر في كانون الأول 2004 أكد جون كيرتس مسؤول قسم تحف الشرق الأدنى في المتحف البريطاني بأن قوات الولايات المتحدة ساهمت في تدمير خرائب بابل فعلى طريقها وجد تعبيد مكون من قرميد عمره 2600 سنة دمره مرور المركبات العسكرية وكذلك العديد من شظايا لتمثال الملك نبوخذ نصر (605 ق م–562 ق م) الذي أمر بطرد يهود أورشليم العام 587 ق م. التقرير يذكر إكتشاف كسر من الخرائب في أكياس الرمل التي أستخدمت من قبل القوات المسلحة كساتر للحماية. في الأول من نيسان 2005 فجر برج منارة الملوية. هذا البرج الذي إرتفاعه 57 مترا والذي بني بأمر من الخليفة المتوكل العام 852 عندما كانت سامراء عاصمة الإمبراطورية العباسية كان منارة حلزونية غير مألوفة يرتقى إليها عن طريق درج خارجي ملوي حولها. كانت هذه واحدة من الجاذبات الرئيسيات للسياحة في العراق حتى أن بعض أوراق البنك العراقي المالية تحمل صورة لها.

9

كان بالإمكان توقع تدمير ونهب هذه المواقع، ففي 24 كانون الأول 2003 عقد إجتماع سري وغير عادي في البنتاغون. مجموعة من علماء الآثار عقدت إجتماعا مع جوزيف كولنز ويفترض أنهم حصلوا على وعد بالمحافظة على الآثار من بول ولفوتز مستشار الرئيس بوش وضباط هيئة الأركان. طلب هؤلاء الأساتذة من جيش الولايات المتحدة حماية سلسلة من المتاحف والمواقع. مكوير جبسن وهو باحث محترم في المعهد الشرقي بشيكاغو زودهم بوثيقة تعد 5 آلاف مكان أساس وكان أول موقع ذكر في هذه القائمة هو متحف الآثار في بغداد. مارتن سوليفان وهو مستشار ثقافي للرئيس جورج دبليو بوش حذره عدة مرات وعندما بدأت أعمال النهب إستشاط غضبا وقدم إستقالته. في يوم 27 شباط أرسلت الجمعية الآثارية الأميركية رسالة الى وزير الدفاع وردت فيها التحذيرات الأكثر فظاظة التي لم يسبق أن وجهت الى رجل سياسة.

كانت دوافع هذا الإهتمام قانونية لوجود مقدمات لا يمكن إخفاؤها. بعد حرب الخليج 1991 أسس برنامج BRILL (مكتب التحقيق وإستعادة غنائم تحف الآثار العراقية) مركزين مكلفين بالتحقيق في سرقات القطع والأضرار المسببة للتراث الثقافي العراقي من قبل طائرات التحالف. هذان المركزان أقيم أحدهما في تورين بإيطاليا والثاني في بغداد في ما أطلق عليه إسم معهد العلوم الآثارية الإيطالية- العراقية (دار النقيب الكيلاني). علينا أن نعرف بأنه في عامي 2000-2001 نظم جرد بالأعمال المسروقة. هذا الجدول يلخص هذا النهب الضخم:

1) بابل 46 قطعة.

2) كركوك 685.

3) الكوفة 140 .

4) القادسية 640.

5) ميسان 588.

6) دهوك 200.

7) واسط 74.

8) البصرة 714.

9) آشور 115.

مجموع القطع إرتفع الى 2625 قطعة ولم يتم العثور على أغلبها.

10

الى جانب هذه البانوراما الكارثة حدثت واقعة مذهلة لا بد لي من ذكرها. في نهاية الأسبوع الأول من آيار 2004 ، وخلال المواجهات مع الميليشيات المناصرة لرجل الدين الصدر، كانت

القوات الأميركية والإيطالية هي السبب في إندلاع حريق دمر تماما مكتبة المتحف في الناصرية بمجلداتها البالغة 4 آلاف.

11

خلال مؤتمر (أنترنيت ليبريريان أنترناشنال) الذي عقد في لندن في شهر تشرين الأول 2004، أكد سعد إسكندر مدير المكتبة الوطنية في العراق بأنه في ظل نظام صدام حسين أهملت المكتبة والأراشيف الوطنية فالديكتاتور الذي لم يكن يتحمل الرأي المختلف لم يعد يدعم الثقافة، وإتهم إسكندر وزير الثقافة السابق حامد يوسف حمادي بأنه شبه المكتبة الوطنية بالمقبرة، وجلب إسكندر معه أدلة تظهر أن جميع موظفي المكتبة ينتمون الى حزب البعث. في العام 1987، حسب قول إسكندر، قطعت العقيدة البعثية الموارد عن المكتبة وأدت الى دمج الأراشيف بالمكتبة ما دل على إنعدام الإهتمام المتزايد بالتحقيقات، فبدون التمويل ينهار عمل المكتبة، كما صرح إسكندر.

من بين ما أبلغه ذكر حقيقة أنه في العام 2003 لم يكن يوجد أي برنامج لحفظ الكتب وأن مختبرات الترميم والتجفيف لم تكن مستعملة منذ عشر سنوات، وفيما كان يقدم إستعراضه قرر أن يشرح ما كان يجري في نيسان 2003 وإتهم سلفه بالإهمال لأنه لم يستفيد من قرب العديد من الجوامع التي كان يمكن أن ينقل إليها عددا أكبر من الوثائق والكتب لحمايتها.

عرفت بفضل إسكندر أن القوات الأميركية تتحمل وزر إنتهاكات إتفاقية لاهاي في العام 1954 لعدم حمايتها للمواقع الثقافية خلال الإستيلاء على بغداد. شرح بأنه في 10 نيسان أطاح العديد من الجنود بتمثال كان يقوم في واجهة المكتبة الوطنية، ثم غادروا، مسهلين بهذا الإعتداءِ النهبَ والحرقَ اللاحقين. أقر إسكندر بأنه في الواقع حدث حريقان وأنه إثناء الحريق الثاني ضاع 60 بالمئة من الأراشيف بطريقة لا يمكن معالجتها. كانت خسارة البطاقات والنسخ في المكتبة كلية وقدر أن المكتبة خسرت 25 بالمئة من المجلدات، وأشار الى أنه فتح تحقيقا لمعرفة فيما إذا كان هذا التدمير مدبرا، وخلص الى أنه في أغلبه عشوائي والباقي مخطط له كما هو الأمر في حالة حرق أراشيف الفترة الجمهورية على شكل محرقة منظمة.

الأمر الفريد بأن التحالف، وقد حدثت الكارثة، لم يتخذ أي إجراء لإنقاذ الكتب التي كانت معروضة في منشآت وزارة السياحة كما كان ينتظر منه وقد سرقت المئات منها. لكي يغطي مرتكبو هذا الجرم على فعلتهم أغرقوا الأرضية مسببين تدمير ما نجا من أحداث نيسان 2003. وأخيرا أقول بأني شعرت بضيق شديد حين عرفت من فم إسكندر بأن أيا من الوعود الدولية بمساعدة المكتبة الوطنية لم يجر الإيفاء به.

في العام 2006 وضع إسكندر على الأنترنيت يوميات حياته ومنها عرفنا ما توجب عليه أن يقاسيه كما تظهر الفقرات التالية:

الإسبوع من 23 الى 28 كانون الأول 2006:

أسبوع سيء آخر للمكتبة الوطنية. في يوم الأحد علمت ان فرقة للموت قتلت أحمد صالح الذي كان في أجازة في بيته. كان أحمد من عائلة فقيرة جدا وبعد وفاة أبيه تكفل بمعيشة أخوانه وأخواته الصغار. كدح لكي يربيهم. كذلك علمت بأن أحمد خطب فتاة قبل إسبوعين من موته.

يوم الإثنين تلقيت أخبارا مرعبة جديدة. قتلت مجموعة إرهابية أخا ميادة الأكبر التي تعمل في قسم المطبوعات الدورية. علمت كذلك أن قناصا أطلق النار على سيارة في شارع الجمهورية فقتل السائق وجميع الركاب.

نحن في فترة أعياد رأس السنة وإنعدام الأمان أسوأ من أي وقت مضى. في مؤسستنا لدينا أربعة مسيحيين، الأولان أ و ب يعملان في قسم الأرشيف والثالث س في المكتبة والرابعة د في مكتبي. منحتهم أجازة خمسة أيام لكي يحتفلوا بالعيد. لم تأخذ د غير يوم واحد وإستمرت تأتي الى العمل حتى عندما تكون الشوارع الرئيسية مقطوعة. نصحتها أن تغطي رأسها عندما تعبر المناطق فقالت لي بأن لديها منذ زمن طويل وشاح ترتديه لكي تخفي كونها مسيحية وتنزعه عندما تصل الى الدائرة.

في يوم الثلاثاء كان عندي إجتماع مع الوزير وتحدثنا عن الأمن ووضع الموظفين. وفيما كنا نتحدث دخل مدير مكتب الوزير محمد ليعلم الوزير أن الوضع الأمني إزداد سوءا في المناطق

المحيطة بوزارة الثقافة. قتل الإرهابيون شخصين قرب السينما على مبعدة 200 متر من الوزارة.

عندما خرجت من الوزارة قيل لي بأن سيارات مشبوهة تجوب الشوارع. منذ أربعة أشهر إنتقلت الوزارة الى مقرها السابق في شارع حيفا المعروف بأنه معقل البعثيين والقاعدة. حالما وصلت الى مكتبي علمت بأن المجاميع المسلحة سدت شارع حيفا وهاجمت عدة بنايات رسمية. المواجهات بين المجاميع المسلحة وحراس المباني الحكومية إستمرت لساعات.

قصة إسكندر هذه تتبع بواقعيةٍ الفوضى التي سادت في بغداد. في نهاية شباط 2007 سبب إنفلات أعمال العنف مذبحة جماعية ومئات الهجمات الإرهابية. واحد من الهجمات الأكثر فظاعة حدث في شارع المتنبي فقتل أكثر من ثلاثين شخصا ودمر عشرات المكتبات والبسطات التي تبيع الكتب القديمة في عرض الشارع. شكا الشاعر جبار محيبس آسفا "لن يشتعل الضوء هنا بعد، هذه نهاية كل حياة ثقافية" في بغداد التي كانت منارة ثقافية في العصور الوسطى.

12

يتوجب قراءة هذا النص بعناية:

"مواصلاتنا من بغداد غير مناسبة وناقصة. كل شيء أسوأ مما قيل لنا. نحن اليوم قريبون جدا من كارثة". هذه الأسطر ليست مقتطفة من تقرير ضابط أميركي وليست مؤرخة في سنة 2003 بل هو مقطع من رسالة تعود الى العام 1920 موجهة من لورنس العرب الى مسؤوليه في إنكلترا. الغريب أن هذه العبارات الأسطورية لا زالت صالحة اليوم.

لهذا ولأسباب كثيرة أخرى توجب أن يكون العراق حالة مثالية للكفاح ضد الإرهاب حتى وإن أصبح في النهاية فردوسا للإرهابيين. أمة محرومة من الحماية، أفقرتها عقود من الحرب، وفريسة للصراعات الدينية والهجمات الإنتحارية، نخرتها الأزمة الإقتصادية، وكما لو أن هذا كله غير كاف، فقد سكانها جزءا كبيرا من ذاكرتهم، وكتبهم إحترقت، وأعمالهم الفنية بين أيدي

المهربين. العراق هو البلد الأول في القرن الحادي والعشرين الذي أصبح ضحية لقتل الذاكرة، والذين قتلوا ذاكرته أفلتوا من العقاب.

هل يستطيع قارئ هذه الوقائع أن يتخيل أن القرن الحادي والعشرين إبتدأ بنهب وتدمير مهد الحضارة؟

==========

المصدر

Histoire universelle de la destruction des livres, 2008 Fayard

عنوان الفصل

Les livres detruits en Irak

هوامش:

1) **روبيرت فيسك. الغارديان 15 نيسان 2003.**

2) **غوردون، د. "بضائع مسروقة" ، ناشنال بابليك راديو، 7 تشرين الأول 2003.**

3) **مايت، ف. "العراق: الأراشيف، المكتبات المدمرة بالنهب الحربي" راديو فري يورب/ راديو ليبريري، 13 تموز 2004.**

4) **في فهارس المكتبات:**

***أسامة ناصر النقشبندي و محمد Zamya عباس (مخطوطات الحساب والهندسة والجبر في مكتبة المتحف العراقي– بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد 1980.**

*** بهنام فاضل Affadh. تأريخ الطباعة والمطبوعات العراقية، بغداد 1984.**

* عبد الرحمن عبد الجبار، البيبلوغرافيا العراقية الوطنية 1856-1972 ثلاثة مجلدات بغداد 1978.

* زاهدة إبراهيم، كشاف الجرائد والمجلدات العراقية 1978.

* كوركيس عواد، معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين 1800-1969 ثلاثة مجلدات، بغداد 1969.

* كوركيس عوالد و عبد الحميد العلوجي، بيبلوغرافيا عن بغداد . بغداد 1962 .

* علي. ل .عبد الحسين، قائمة بالكتب والمراجع الخاصة بالبصرة. البصرة 1981.

5)

*جيبسون، مكوير. "مأساة ثقافية في العراق: تقرير عن نهب المتاحف والأراشيف والمواقع" جريدة IFAR المجلد 6 العددان 1 و 2 سنة 2003.

* ستيل، جوناثان. " تركت كنوز المتاحف تحت رحمة النهابين" الغارديان، لندن 14 نيسان 2003.

* بلير، ديفيد. "حرامية بغداد يسلبون المتاحف كنزا لا يقدر بثمن" . الديلي تلغراف، لندن 14 نيسان 2003.

6) راسل، جون م. " جرد شخصي عن مهمة اليونسكو الأولى التراث الثقافي في بغداد" 16-20 آيار 2003.

7) روبسون، إليانور. "المتاحف العراقية: ماذا حدث حقا" الغارديان، لندن 18 حزيران 2003.

8) عبد الله الجبوري سرد قصة هذا المركز تحت عنوان مكتبة الأوقاف العامة.. تأريخها ونوادر مخطوطاتها، بغداد 1969.

الرقابة والرقابة الذاتية في الادب الحديث

الهجمات على جيمس جويس

إن الكاتب الآيرلندي جيمس جويس (1882–1941) هو أحد مراجع الأدب العالمي الكبرى، ولكن الرقابة لاحقته طوال حياته، فمثلا حين طبع (أهل دبلن) 1912 في طبعة تبلغ ألف نسخة أحرق الناشر (جون فالكونر) في دبلن 999 نسخة منها لأن العمل، برأيه، لم يكتب بلغة لائقة. وذات مرة فيما كان جويس ينتظر وصول القطار في محطة (فلوشنغ) في الأراضي المنخفضة، أنشأ قصيدة بعنوان (تبجح من حرّاق) بمثابة هجاء ساخر لنزعة حرق الكتب وهذان بيتان من أواخر القصيدة:

من ذا الذي قال لا تقاوم الشيطان؟

سأحرق هذا الكتاب وسيساعدني الشيطان.

أعاد كتابة مجموعة القصص في العام 1914. إن واحدة من الروايات التي كانت أكثر إثارة للجدل والإعجاب في القرن العشرين هي روايته (عوليس) 1922 دون شك. عندما ظهر أول كراس من العمل في مجلة (ليتل ريفيو)، حاولت أن تقرأه (نورا بارانكل) زوجة الكاتب ولكنها رمته جانبا بإحتقار، وقام فيما بعد أعضاء من (يو أس بوست أوفيس)، وهم ورثة فلسفة أنتوني كومستك، بإحراق نسخ من المجلة إعلانا لغضبهم، وفي تشرين الأول عام 1920 بنيويورك قاضت جمعية محاربة الرذيلة محرري المجلة، وفي العام 1921 حكم على مرغريت أندرسن وأعضاء آخرين من هيأة التحرير بغرامة 50 دولارا إضافة الى حظر طبع فصول أخرى.

كتاب آخرون دمرت كتبهم

أغتيل (ميخائيل فيليبوف) بأمر من القيصر نيقولا الثاني في تشرين الأول 1903. أحرقت مخطوطاته واعماله العلمية بعد فحص دقيق لتفاصيلها التي أثارت قلق العسكر. إن فيليبوف مؤلف (ثورة من خلال العلم) و (نهاية الحروب) ومؤسس (مجلة العلم) اكتشف، أو إدعى أنه اكتشف، طريقة لتحويل حزمة من الموجات لها القدرة على الانفجار بوساطة نظام بسيط، وقال أن هول الانفجارات، حسب قوله، سيضع نهاية لأية محاولة لشن حرب أو التسبب باضطراب في العالم.

في العام 1915 دمرت نسخ من نص د. هـ. لورانس (قوس قزح) في انكلترا، أما روايته (عشيق الليدي تشاترلي) فلم تتلف فقط بل ولم تبع لسنوات عديدة أيضا.

رفضت مكتبات عامة عديدة في العام 1935 محتوى روايات ثيودور درايزر مؤلف (الأخت كاري) 1900 و (جيني غيرهارت) 1911 و (تراجيديا أميركية) 1925 لا بل أن بعض أصحاب المكتبات أقدموا على حرق نسخ من أعماله.

في العام 1939 رفض أمناء مكتبة (سانت لويس) العامة رواية (عناقيد الغضب) لجون شتاينبك، ورموا بالكتاب في محرقة علنية قام الخطباء خلالها بدعوة الكتاب الأميركيين الآخرين الى أن لا يتساهلوا مع اللغة الفاحشة ولا العقيدة الشيوعية.

في تشرين الأول 1945 قامت مجموعة من نشطاء الحزب السياسي الفنزويلي Accion Democra بإحراق مكتبة المؤرخ كاركسيولا بارا بيريز أحد مؤسسي منظمة اليونسكو وتسبب هذا الاعتداء بفقدان النسخة الاصلية لواحد من اهم أعماله.

اتخذ كورت فوينغوت قرارا عام 1973 بنشر رواية غير عادية بقدر ما هي إلحادية عنوانها (مسلخ رقم 5) وقد احرقها حارس لمدرسة (دريك) العالية في داكوتا الشمالية عادا إياها رواية إباحية أمام جمع مهيأ مسبقا من الأساتذة والطلبة، ورمى في اللهب 32 نسخة من الكتاب.

إن تسامح الولايات المتحدة الثقافي خلال الحرب العالمية الثانية أثبتت كذبه عدة وقائع تاريخية لا يمكن دحضها، فما بين عامي 1940 و 1941 على الساحل الغربي صادرت سلطات الخدمات البريدية 600 طن من الكتب الأجنبية وأتلفتها، كما انجز العديد من

الجامعات "واجبا وطنيا" بين أيلول 1939 والسابع من كانون الأول 1941 بتطهير مكتباتها من الاعمال "التابعة للعدو الألماني". اعلنت وزارة الخارجية الأميركية، صراحة احيانا وتلميحا أحيانا أخرى، موقفها ضد كتب معينة، وخلال مطاردة الكتاب ذوي الميول الشيوعية عام 1940 تسبب هجوم مفاجئ على مكتبة لأحد اعضاء الحزب الشيوعي في اوكلاهاما سيتي بمصادرة وإتلاف المئات من اعمال ماركس وأنجلز بالنار، وتم توقيف الزبائن وحكم على مسؤولي المكتبة بالسجن عشر سنوات. اندلع في العام 1954 غضب عارم ضد كتب فيلهلم رايخ، وفي العاشر من كانون الثاني حاولت الدعوى المدنية 1056 منع اعماله، وفي 15 حزيران 1955 أدت الدعوى الجنائية رقم 5003 الى هذا التفويض وفيما بعد أحرق موظفو وزارة الخارجية كتبه وأتلفوها. في العام 1953 قدمت لائحة سوداء بالكتاب الذين يجب أن تستبعد كتبهم من المكتبات. من بين المؤلفين الممنوعين الذين صودرت كتبهم وأحيلت الى رماد أو الى عجينة ورق نذكر هوارد فاست وجوزيف دافيز وليليان هيلمان واخيرا وليس آخرا داشيل هاميت. إنه لمما يبعث على السخرية أن أي بلد في العالم لم يدن إجراءات النازية في إحراق الكتب بالحماس الذي أدانتها به الولايات المتحدة.

الكتاب الملاحقون

كان اضطهاد الكتاب في القرن العشرين عملة رائجة ولكني سأتحدث بالذات عن أربع حالات:

الحالة الأولى هي حالة جيمس هانلي (1901-1984) عندما نشر (ولد) سنة 1931 وهي رواية واقعية تتحدث عن تدرب بحار شاب. حكم قاض من مانشستر على الناشرين بدفع غرامة 400 ليرة وسحب الطبعة من المكتبات. في العام 1934 أعادت دار النشر بوريسوود طبع العمل ووضعت الشرطة يدها على 99 نسخة لتتلفها فورا. أتلف هيو والبول أيضا نسخة علنا وقال: " (....) إنها غير مقبولة ورهيبة سواء على مستوى السرد أو على مستوى الأحداث المروية الى درجة أني دهشت لأن عمال المطبعة لم يضربوا عندما كانوا يطبعونها".

المؤلف الثاني هو (ماريا فارغاس يوسا) البيروي مؤلف (مدينة الكلاب) 1962 وهي رواية رائعة يصف فيها تجاربه في الكلية العسكرية ليونوسيو-برادو دي ليما. في العام 1964 ألقى

العسكر الذين أقلقهم محتواها الى النار النسخ المصادرة. أحرقت في الجامعة المركزية الفنزويلية نسخ عديدة من أعماله وبعض مقالاته حول الحكومة الكوبية.

المؤلف الثالث هو الماركسي البرازيلي جورج أمادو الذي توجب عليه مغادرة بنغلاديش بسبب مضايقة الاسلاميين له، وهو مؤلف (دونا فلور وزوجاها) 1966. أحرقت 1700 نسخة من أحد أعمال هذا الروائي بأمر مباشر من الديكتاتور غيتوليو فارغاس.

أخيرا لا بد أن أتحدث عن (تسليمة نسرين) التي اضطرت الى مغادرة بنغلاديش بسبب مضايقة الاسلاميين لها، وقد كلفتها كتابتها باللغة البنغالية للارتقاء بوضع المرأة إتلاف العديد من كتبها خلال التسعينيات، واستمرت مضايقتها بعد عودتها الى بلادها.

حين يندم المؤلفون

دفع الخوف والوهن والخيبة بالعديد من المؤلفين الى إتلاف أعمالهم أو إعلان رغبتهم وهم على فراش الموت بإتلافها.

الشاعر فيرجيل (بوبيليوس فرجيليوس مارو 70–19 ق م) أمر وهو يحرر وصيته بأن تتلف قصيدته الملحمية (الإنيادة) بالنار، وأمر عشية وفاته بإحضار العلب الاسطوانية التي تضم الملحمة ليحرقها بنفسه ولكن لم يصغ له أحد ومات وهو يظن أن نصه تحول الى رماد.

حلف أوفيد وهو في المنفى بأنه أحرق أشعاره لأنها خيبت آماله.

لم يكن الشاعر الانكليزي جون دون (1572–1631)، وهو يكتب (بياناتوس) لدراسة الانتحار، متأكدا من قيمتها. يؤكد بورخس قائلا: "هذه المقالة التي ألفت بداية القرن السابع عشر بقلم الشاعر العظيم جون دون الذي ترك المخطوطة عند السير روبيرت كار دون الاشارة الى تسليمها للطبع أو للنار. توفي دون في العام 1631 وفي العام 1642 اندلعت الحرب الاهلية وفي العام 1644 عهد ابن دون الاكبر بالمخطوطة الى الطبع "لإنقاذها من النار".

وليام كولينز (1721–1759) قارئ سافو (ابنة آلسي دي ميتيلين من بيندار) وهو واحد من المواهب الاكثر تحريضا في الادب الانكليزي والذي مات مبكرا أحرق العديد من نسخ كتابه (غنائيات في مواضيع وصفية ومجازية عديدة) 1747 بسبب مبيعاتها المتدنية جدا.

آدم سميث مؤلف (بحوث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم) 1779 الذي كان مقتنعا مسبقا بمجده ولكنه لم يكن واثقا تماما من أن بعض مخطوطاته المحررة بشكل سيء يمكن ان تكون مقروءة بعد وفاته، "أتلف عددا من نصوصه التي لا بد أن نذكر من بينها النصوص المختصة بعلم البيان" (وهذه عبارة عن دروس ألقيت في أدنبره وكذلك محاضراته في الثيولوجيا الطبيعية والقضاء التي ألقاها في كلاسكو).

تؤكد الشهادات بأن روبيرت لامانون (1752–1787) أحرق كل الطبعة الأولى تقريبا من كتابه (مبحث في النشأة الحجرية لوادي شانبسور وجبل درومنيير في دوفيني العليا) 1784. احتفظ منها بإثنتي عشرة نسخة حملها معه في رحلة استكشاف واختفت عند غرق السفينة التي كانت تقله، ولكنه قتل على يد المتوحشين في 10 كانون الأول 1787 في جزيرة مادونا تاركا كتبه لتواجه تلفا مؤكدا.

إسحاق دي إسرائيلي وهو مؤلف مشهور أحرق وهو يشعر بالخجل بيانه (دفاعا عن الشعر) 1790 ولكن زبائن أفلحوا في إنقاذ عدة نسخ.

شاعر انكليزي منسي هو روبيرت تاناهيل مؤلف (عودة الجندي... وصلة اسكتلندية بفصلين مع قصائد وأغان أخرى) 1807 و (قصائد وأغان) 1815 أحرق جميع أوراقه تقريبا لأنه لم يجد ناشرا لقصائده بعد طبع كتابه الأول في العام 1807.

توماس ديكونسي أصبح شهيرا عندما ظهرت في أيلول وتشرين الأول 1821 (إعترافات آكل أفيون انكليزي) ولم تنتظر مجموعة من الناشرين، كانوا على اطلاع على مشاريعه غير المنجزة، جزءه الثالث الذي وعد به المؤلف وقررت فورا طبع كتاب أصبح عملا كلاسيكيا حقا. إلا أن عملية كتابة العمل كانت قلقة وأعلن ديكونسي بأنه فقد العديد من أوراق المخطوطة الأصلية إثناء حريق صغير في مسكنه دمر (ابنة ليبانون، حلم آفيون). "من بين الأوراق التي التهمتها النار جزئيا، ولكن ليس بطريقة يصعب إصلاحها، توجد ابنة ليبانون".

أحرق والد المؤلف جيمس أ. فرود كل ما استطاع أن يجده من طبعة (ظلال الغيوم) 1847 التي نشرت تحت اسم مستعار (زيتا) في لندن.

وجد منفذ وصية الفيلسوف الألماني (أرثر شوبنهاور) 1788–1860 بين أوراقه بعد وفاته عدة نصوص في الفلسفة وملاحظات مختلفة بعضها حرر بالانكليزية ويعالج مشاكل جنسية ونزوات شهوانية للمؤلف، وبما أن شوبنهاور كان مبغضا للنساء فضلا عن أنه متورط في سقوط امرأة على السلالم رأى منفذ الوصية تأويل إرادة المفكر بحرق هذه الملاحظات سرا.

أحرق جيمس فينيمور كوبر مؤلف (آخر رجال الموهيكان) جميع مخطوطاته في العام 1826.

كتب جيمس تومسون مؤلف (مدينة الليل المخيف) في يومياته أنه أحس يوميا بخوف شديد من أن القدر يخبئ له نفس مصير كتاباته: "أحرقت كل أوراقي ومخطوطاتي ورسائلي القديمة ما عدا مخطوطة الكتاب الذي كان معظمه قد طبع. لقد تطلب مني هذا خمس ساعات لكي لا أتسبب بحرق البيت بنار المدفأة وأنا أراقب الاحتراق جيدا. أحسست بأني حزين وغبي. لو أني ألقيت عليها نظرة، لو أني قرأتها قراءة جدية لعجزت دون شك عن إتلافها".

غادر أرثر رامبو في 23 تشرين الأول 1873 الى بروكسل بحثا عن نسخ طبعت مؤخرا من كتابه (فصل في الجحيم) (53 صفحة)، زوده الناشر في بروكسل جاك بوت بعدد يتراوح بين عشرة وعشرين نسخة. أعطى رامبو نسخة الى حمال السجن الذي كان رامبو مسجونا فيه ونسخة أخرى الى ميلو ونسخة الى ديلاهاي ونسخة الى فوران (بيعت نسخة فوران في العام 1998 بمزاد هيوز) ولكن لم يكن مستبعدا ان الشاعر أحرق على الأقل نسخة وأتلف مخطوطاته عندما لجأ الى شارلفيل. ظلت باقي النسخ في مستودع واستعادها في العام 1901.

إضافة الى المؤلفين يمكن أن يسبب أصدقاؤهم إتلاف عمل ما، ولنتذكر حالة غوستاف فلوبير حين دعا الى منزله في كرواسيه بضواحي روين في أيلول 1849 إثنين من أفضل أصدقائه (مكسيم دو كامب ولويس بويه) ليقرأ لهم مخطوطته الأخيرة. هذه المخطوطة كانت هي (إغواء سان أنطوان) وهي كتاب غريب مكتوب انطلاقا من انطباع ولدته عنده لوحة بروغيل. خلال

أربع جلسات قرأ عليهم النص غير أن صديقيه أعطياه حكما لا استئناف له: "عليك أن تحرق هذا ولا تتحدث عنه بعد".

أخبر أدجار آلان بو في (الأعراف، تيمورلنك وقصائد أخرى) 1829 بأن طبعة مجموعته الشعرية الأولى (تيمورلنك وقصائد أخرى) 1827 قد "أتلفت بسبب ظرف ذي طبيعة استثنائية"، وحسب ما قاله البعض أن بو لم يستطع طبعها فبرر هذا بالتلف ويؤكد آخرون العكس بأن بو أتلفها كلها في لحظة نقد ذاتي. نشرت (تيمورلنك) في حزيران أو تموز 1827 في مشاغل كالفن فريدرك ستيفن توماس. هذه الطبعة تضم صفحات مرقمة من 5 الى 40 ، ويؤكد مختص مثل أوليف مابوت بأنه لم يطبع منها سوى 200 نسخة فيما يقدر جيمس ألبيرت هاريسون بأنه لم يكن يوجد منها سوى أربعين. أنا أذكر هذه الواقعة لأننا لا نعرف اليوم غير 12 نسخة. أما البقية فقد اختفت أو أتلفت ببساطة.

يعترف جوزيف كونراد في (تواريخ شخصية) 1912 بأن أباه الثوري ومترجم شكسبير وفيكتور هيجو أمر بحرق مخطوطاته، والقصة التي يرويها كونراد مثيرة بشكل خاص: "تم الاحراق تحت إشرافه. صادف ذلك المساء أن دخلت غرفته قبل الوقت المعتاد بقليل ورأيت، دون أن ينتبه إلي، كيف كانت مدبرة المنزل تغذي بمخطوطاته لهب المدفأة".

(فرانز كافكا) رجا (ماكس برود) أن يحرق دفاتره تاركا له هذه الرسالة: "عزيزي ماكس، رغبتي الأخيرة هي أن كل ما تركته خلفي يجب أن يحرق دون أن يقرأ" ولحسن الحظ أن ماكس برود لم يمتثل لطلبه. لكن كافكا طلب أيضا من دورا ديمانت الشيء نفسه وأتلفت هذه الصديقة المخلصة بالنار كل الجزء الأخير من يومياته. يقول بورخس بشيء من السخرية أن الشخص الذي يريد إتلاف كتبه لا يكلف شخصا آخر بهذه المهمة.

أحرق أنتونيو ماشادو كتابه المعنون cantares عند زيارته الأولى لباريس في 1899.

أسلم جيوفاني بابيني الى اللهب نسخ عمله الإلحادي (مذكرات الرب) 1913 بعد أن اعتنق المسيحية.

أحرق الشاعر الكولومبي جيرمان برادو غارسيا كتابه El arbol de alba 1928 أمام صديقه بيرمان آرسينيغاس.

أما الفنزويلي إنريك برناردو نونيز (1895-1964) مؤلف Cubagua 1931 فقد رمى بدافع الخيبة في مياه هدسون كل طبعة سنة 1938 من روايته La galera de tiberio.

أحرق الكولومبي إدواردو سانتا في 9 نيسان 1948 رواية Girasol ولم يبق اليوم غير نسخة واحدة من هذه الطبعة الأولى.

فقد مالكولم راولي مخطوطة (في بالاست الى وايت سي) في حريق غامض في كوخه يوم 7 حزيران 1944 ولو أخذنا بشهادة زوجته فإن أكثر من ألفي ورقة قد احترقت. اتهم البعض راولي بأنه أضرم النار في منزله بنفسه.

اعترف إرنست يونغر في (يوميات حرب واحتلال) 1949 بأنه أحرق أوراقه عام 1945 خوفا من قوات الحلفاء: "ذلك اليوم قمت بأول إعدام حرقا، أو لكي أكثر دقة، وضعت كمية كبيرة من الورق في برميل القمامة الموجود في الباحة. إثنتان من اليوميات بدأتهما في العام 1919 وقصائد ورسائل. فعلت هذا دون عناء إذ أن الأحداث أخذت تدفع الى مثل هذا العمل. كان يجب التضحية بها لا بل كانت التضحية بها مستحبة".

في (محاولة لسيرة ذاتية) لم يخف بورخس أنه أحرق كتبه الأولى حيث يقول "بعد بضع سنوات، إن لم يكن سعرها مبالغا فيه، سأشتري منها نسخا وأحرقها" وقد رفض حتى السنوات الأخيرة من حياته إعادة طبع ثلاثة من أعماله التي نشرها في العشرينيات: Inquisiciones 1925 ، و El tamana de me esperanza 1926 و El idioma de los argentines 1928 .

ترك أميل سيوران عند وفاته ما يقرب من 34 دفترا كل منها بألف صفحة مع إشارة محددة هي "للإتلاف"، وتوجد حالات أخرى دون شك حال حياء المؤلفين دون وضع هذه الإشارة.

=========

مصدر الترجمة:

FERNANDO BAEZ: Histoire universelle de la destruction des livres : Des tablettes sumériennes à la guerre d'Irak, 2008, FAYARD

الفصل:

Chapitre quatre: Censure et autocensure dans la litterature moderne.

****

درس ميخائيل باختين... تصادم اللغات والثقافات

جي ديميرسون

إن مستخدم الأنترنيت الذي يطلب المعلومات عن باختين يحال الى مدخل يجد فيه أن هذا الإسم يشترك في أكثر من 27000 رابط معلوماتي، وإذا إستشرنا موقعا معينا نجد أنه إستقبل ما يقرب من مليون زائر بين حزيران 1996 و كانون الأول 2001، هذا يعني أن صوته لم يمت منذ أن دوى في الغرب قبل ثلاثين عاما، ويعني أيضا أن الدراسة التالية لا تدعي الإحاطة ولن نذكر إلا أسماء كتاب ونقاد على سبيل المثال لا الحصر.

المراقب القادم من بلد البرد

لم يقدّر لكتابه الأكثر شهرة والمستمد من أطروحة له أستقبلت بعين الريبة من قبل لجنة المناقشة الرسمية عام 1946 (آثار فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وتحت

عصر النهضة) أن يطبع إلا عند حدوث التكسرات الأولى للجليد المرعب في الشرق (يقصد بوادر إنهيار النظام الشيوعي- المترجم)، ثم ترجم الى الإنجليزية والإيطالية والإسبانية والفرنسية (2). أستقبل هذا النص في الثقافات الغربية التي كانت مرتعا لإرهاصات ثورة حقيقية بوصفه كشفا إنفجاريا مؤسسا على مجموع ملاحظات متماسكة ونظريات ألسنية وجمالية، وسياسية وتأريخية. (يجب من جانب آخر أن نستعمل بحذر كلمة نظرية إذا تعلق الأمر بكتابات مؤلف يتهم بإستمرار البنى النظرية بـ(نخر) البنى المادية [...]. إن المفاهيم، إن كانت تستحق هذا الإسم، تمر حسب رأيه بإستعارات غنائية دائمة التكاثر وهي تفضح كل الذين يريدون تقنينها [....] والغدر بأثمن ما في رسالتها) (3).

يبدو أنه من غير المجدي اليوم العمل على تطوير أفكار مستهلكة جدا (4)، ولكنه من الصحيح أيضا أن (المفاهيم التشريحية) لهذا العمل، مع أنها تصبح صيغا مكررة أحيانا، تتكشف عن وسائل ناجعة لتحديد مفهوم التخوم الفضفاضة التي هي الثقافة الشعبية.

أولا:

إن عيد الشارع بطباليه ومواكبه الكرنفالية هو بمثابة الإعلان الأصلي عن الثقافة الشعبية وبالنتيجة فهو مكونها الجوهري، والى حد ما، فكرتها الأفلاطونية (آثار فرانسوا رابليه...المصدر ص90). منذ أن ظهر عمل باختين تبذل لجاننا الثقافية البلدية جهودها في إعادة بناء هذه الشعائر في المدينة لتعيد التواصل مع ماضي المهرجانات الأسطورية، ولكن هذا برأي النقاد إعادة تقص للدرب بوصفه معيارا، وقد أصبح هذا المعيار يمثل ممارسة شعائرية كما في الكنيسة (5) لحضور الناس في العمل الشعائري، هذا الحضور يكون أحيانا أكثر نخبوية مما يبدو ظاهريا.

فلنذكر لا على التعيين بضع شواهد على هذه التحليلات التي أخصبها باختين. أستخدمت مقولات باختين للتمييز عند غوته ومايكوفسكي، تحت مظهر (الذوق السيئ)، بين دوافع تنبثق من الموكب الشعبي البربري المجدف الذي إنبثق من بين يدي رابليه (6) وأيضا فإن الفولكلور، حسب رأي أج هانس-لوه (7) ورأي مايكل.د. بريستول (8)، ليس فقط منطقة إكتشاف تأريخي وأنثروبولوجي، مع ما في الكرنفال من مراوغة، ولكنه أيضا بناء أدبي صادر

عن الشعب ومؤلف خصيصا لجمهور شعبي (9) لا يرقى الى مستوى الأرستقراطية الفكرية للـ(سخرية) والهجاء فهذا جنس يليق بالنخبة. النقض الشعبي (أنا أفضل هنا تعبير النقض على التعبير المتعارف عليه في الترجمات وهو الهدم أو التهديم فلهذا الأخير برأيي معنى التخريب في ذائقتنا العربية مايجعله بعيدا عن المفهوم الجدلي المقصود كما سنلاحظ في حين أن النقض أقرب الى هذا المفهوم المقصود–المترجم) ليس هجائيا أبدا في تعرضه لبنى الواقع، إنه يعبر عن نفسه بـ(الواقعية البشعة المضحكة).

ثانيا:

هذه المعارضة للثقافة الرسمية، وهي (جدية) في تصميمها ومخوفة، معيار مميز لوصف الثقافة الشعبية في الكتابات عن الرواية (رواية رابليه) وفي (شعرية دستوفسكي) وفي رابليه.. الطبعة المذكورة ص 6). تقليد مخالف يسمح للناس بالتغلب على مخاوفهم وتأكيد هويتهم بوجه التبوير الثقافي الذي تفرضه الثقافات المهيمنة وعلماؤها ورجال الدين المتعاونون مع النخب. الثقافة الشعبية شهادة وعي المذلين الذين يقاومون الظلم (الرسمي) بخلق لغتهم وشعائرهم (المزدوجة).

ثالثا:

في الواقع أن التقليد المهرجاني بالغ المخالفة للعرف وهو يمتلك جمالية القناع وجمالية الخدعة سلاحا يعبر به عن نفسه على نمط (المزدوج)، وهذا تصور ربطه باختين بالتعبير الشعبي الشفاهي أو المكتوب. يطور (هانس روبيرت ياوس) هذا الإستبصار لتفحص أشكال التخفي النصية، والتخفي مناورة يقصد منها تحرير الناس من الخوف الملهم للدوغماتية الأخلاقية والدينية واللغوية (10). من جانب آخر برهن أندريه بيلو بحذق على أن الناقد الروسي إنطلق من مفهوم جمالية (المزدوج)– وهو ملمح فني يوجد في الفكر الكوبيكي– (الكوبيكي نسبة الى كوبيك وهي مقاطعة في كندا– المترجم) ليطبقه بحذق على أعمال رابليه (11).

رابعا:

نمط (المزدوج) هذا يتجسم بطرق مختلفة في التعبير الثقافي الشعبي وبخاصة في إزدواجية (الأعلى) و (الأسفل)، فأذا كان النشاط الجنسي رمزا لإدامة النوع، والطعام والتبرز خاصيتين حياتيتين، وكل موت هو تمهيد لإنبعاث، يبطل إذن التعارض بين المعدة والرأس، بين (الوضيع الجسدي) و (السامي الروحي). إن الإيمان بالتجدد يظهر في سلوكيات العيد الشعبي، في المواكب الكرنفالية، غرابة الوضيع الجسدي- حُفَره، نتوءاته، جنسه، معدته- وعد بالتجدد الدائم، ولائم شعائرية ومحارق هزلية، لغة (المخبول) المضطربة، والمجون المشين لطبالي الموكب، هذه كلها تتنبأ في الواقع بموت رمزي وإنبعاث شهواني. إن ثقافة الشعب هي معا يوتوبيا (عالم معكوس) وإيمان بتعاقب الهدم والتجدد. برهن (ميشيل جارنييه) على الملاءمة بوصفها معيارا للأدب الشعبي، معيارا لعنصر الإزدواجية الذي لم يعد فاعلا في كتبه الأخيرة، الأكثر بلاغة، أكثر من رواية رابليه عندما تبنى أخيرا (آيديولوجية معيارية منجذبة الى الذات). أصبحت الإزدواجية هنا خارج اللعبة، وحل محلها النقيض (12). لقد وضعت المباحث والمفكرات الجامعية إسم باختين في الصف الأول من ثبتها دون أن تبلغ الغاية المنشودة في إستكشاف الغنى العميق لـ(الوضيع الجسدي) وهو تعبير عن الشعبي لا ناقض له.

خامسا:

أكيد أن باختين حكم بأن التعارض بين الأسلوب الوضيع في الكلام والأسلوب المهذب قد مال الى التلاشي (في لغة الناس المثقفين في العصر الحديث) رابليه ص 417-418 ، وهذه سيرورة ذات أهمية قصوى ستكون نتيجتها شكلا جديدا لـ(هوية) ثقافية، فالصدمة التي سببها توجيه باختين الجوهري إذن هي في معرفة أن تعددية الثقافات هي الحقيقة التأريخية التي تتحدى دائما الفكرة الشمولية لوحدانية الثقافة (13) ولكن التمايز بين الأساليب في الكلام سيواصل بإلحاح بحثه عن أنماط جديدة حسب رأيه لأن (الشعوب كلها مناطق شاسعة من اللغة غير المطبوعة والتي تنكر وجودها اللغة الأدبية [...] المهذبة وفق أصول وآراء اللغة الكتبية). يستحيل في الحقيقة إقامة (فكر آيديولوجي مقبول وصورة فنية ذات قيمة) بالعودة الى مصادر اللغة الشعبية التي لم تكتسب صفة رسمية (لأن لها هيئة اللامنطقي) والروائي الذي يستخدم ما في هذه (المناطق الشفاهية) من كنوز لايفعل سوى خلق (حوارات مثيرة

جذابة). إذن، على وجه الدقة، لو تابعنا التحليل كما يفعل الكوبيكي أندريه بيلو يمكن أن ينشأ في الميدان اللغوي، حيث يشتغل المفصل السري لمجتمع ما، حوار تواصل ثقافي مخصب، كل (منطقة) ممهورة بقيمها، وهكذا يجد مفهوم (الإزدواجية) ملاءمته، إن رابليه، حسب رأي بيلو، إكتشف إمكانات اللغة الفرنسية المحكية بأن إتخذ له مكانا فيها بطريقة ناقدة إرتباطا باللغة الأدبية التي رسم بها رسما حاذقا التفاعل مع اللغة اللاتينية المدرسية واللاتينية الكلاسيكية والإيطالية، فالتعددية اللغوية تصب إذن في تعدد الكفاءة الأدبية (14)، وهكذا تظهر مفاهيم أخرى منسوبة الى تحليل الثقافة الشعبية مثل (التعددية اللغوية) في مواجهة (دوغماتية اللغة الوحيدة) (15)، ونموذج يبني طرازا لإبتكار أدبي يمزج، دون تعقيدات ودون أن يعبأ بالمراتب، كتابات سامية بأسلوب (وضيع). عرف باختين كيف يخلق تبصرا في ظاهرة الحوار الخصب الذي نسميه، إقتداء برولان بارت، التناص، هناك حيث ظهر منذ فترة وجيزة نقد (الأصول) للتقليد المركب.

سادسا:

كل هذه المفاهيم مدرجة ضمن المقولة التأريخية العظمى لل(حوارية)، وهي بنية ثقافية ليس فيها مكان للتعارض بل لحوار بين أنماط المنطق المختلفة التي هي إدراكات للعالم كل منها يعبر عن نفسه بكيفية أخرى (16). حدد باختين بدقة مفهوم التراتب الحواري في الفصل الرابع من (شعرية دستوفسكي) ولكن كتابه عن رابليه يربط هذا المفهوم ربطا حميما بأفكاره عن الثقافة الشعبية التي تتميز ليس بتوظيف الجدلي ولكن بتوظيف (الجدلي بشكله المزوق) ص 4-7 .

(الصراع المتوتر بين الكلمة ذات النبرة المزدوجة والتوجهات التي تجنح للتأسيس في الأسلوب الرسمي ذي النبرة الواحدة [...]. هذا الصراع، كما هو واضح، يتواصل في المراحل اللاحقة، لكن بأشكال جديدة، أكثر تعقيدا ويكون أحيانا مكتوما) (ص429).

كما بين (روبيرت.ل. ويلسن) فإن الحواري داخل الكرنفال يتجلى عندما تكون المخالفة البسيطة للعرف والهجاء، والإساءة أو المطالبة، مونولوجية لا شخصية. إن غير الرسمي في الكلام الكرنفالي لا ينقض الرسمي أو يحل محله، إنه يشرع معه بـ(رقصة إستطرادية) (17). إن

درس باختين الأول، من الناحية النقدية، هو تحرر من المقولات الجمالية المعيارية، وبهذا فهو إعادة تأهيل (للأجناس الصغرى). (شاذ الأدب) هو المخصص للشعب الطيب، والمهازل أو ما تسمى بالتهريجية، والأمثال، وأغاني الشوارع، والخرافيات. لكن الدرس الذي لا يقل أهمية هو أنه ليست البنى الإقتصادية الأساسية هي التي تقرر أشكال الثقافة بل (إدراك كرنفالي ما للسيرورة التأريخية بوصفها لعبة) ص 232. تراث جماعي تحت–أرضي يتخذ فيه تأريخ الإنبثاق زمانية دائرية:

(الوضيع الجسدي مثمر: إنه يمنح الوجود ضامنا بهذا الخلود التأريخي المتعلق بالجنس البشري، تموت الأوهام الباطلة الجوفاء كلها فيه بينما يولد مستقبل حقيقي) ص 376.

كذلك ساعد باختين التحليل الماركسي أن يعمق ويوسع من تصوره للثقافة الحية. علماء مشهورون يساهمون في نشر هذا المقترب ليمنحوا القوة لحماسة ذات طبيعة تواصلية (18). إنتهت السلطات الثقافية الرسمية في الإتحاد السوفييتي نفسه الى الأخذ بالحسبان هذه النظرة الى التأريخ الأدبي، كما يمكن مشاهدة ذلك في المحاضرة الفلمية عن رابليه في فكر باختين والتي عرضها التلفزيون السوفييتي وألقاها ألكسندر كاليجين عام 1976 (19).

في الحقيقة أن فكر باختين بدأ ينتشر في الخارج إنطلاقا من دراسته لرابليه، فرواية رابليه حسب رأيه هي التي (يجب أن تكون المفتاح لمتع العمل الهزلي الشعبي الرائعة التي لم تستكشف إلا قليلا وبقيت غامضة تقريبا. إنه لأمر جوهري أن نمتلك هذا المفتاح قبل الإقتراب من هذه المتع) وبالرجوع الى تحليل هذا العمل علينا تحديد الخاصية الشعبية لأي كاتب (20). بالتأكيد كان الناس قبل هذا التحليل يصنفون منهجيا إهتمام رابليه بالأساطير والمشاهد والمراسيم المرحة ولغة القرويين والعامة. لكن هذه الأعمال تبقى، وهي يغلب عليها التعاطف مع الشعائر وألعاب الناس الصغار، مصنفة ضمن القائمة الفولكلورية دون ملاحظة أساس متين ينظمها: المقصود (تصنيف) تجليات ثقافتين داخل بانتاغريل (إحدى شخصيات رابليه، وهو عملاق أكول–المترجم)، داخل التعارض بين ثقافة (مَنْ في الأعلى) وثقافة (من في الأسفل). إن إصطلاحي (الأعلى) و (الأسفل) يقرنان قيما جمالية بمقولات سوسيولوجية. أول أهم المكتسبات، بالنسبة الى تأريخ الأدب، في هذا الوضع النقدي الجديد هو التقاطع الواضح مع تصور لمؤلف مزدوج يحكم عليه بأنه على درجة من الضعف حسب معايير (الذوق

السليم) الذي يعجبه (المحتوى الهجائي) للعمل ويتسامح بترفع مع (الشكل السوقي). لأن (محتوى) العمل حسب رأي باختين ليس هو (معناه) وأن (جميل) الشعب بطبيعته هو عدو (اللائق).

فرانسوا رابليه

أسطورة الثقافة الشعبية

حفز تجددَ الإهتمام برابليه ظهور أسطورة جديدة، عجيبة الإغراء، هي (الثقافة الشعبية). أثار كتاب باختين عن رابليه في الواقع حماسا هو حماس التجلي، متجاوزا بقيمته الى حد بعيد الإهتمام الذي يمكن أن تثيره دراسة نقدية أدبية مهما كانت عبقرية. كان أثره كأثر الأسطورة موقظا داخل فئات الفقراء المختلفة قبولا وتفسيرات مختلفة بقدر إختلاف ما تنطوي عليه أنفسهم من مشاكل وقناعات. يستحيل أن نضع جردا وافيا لكل التحليلات التي ظهرت في المجلات والصحف منذ صدور طبعته الروسية لعام 1965 (22). بفضل باختين باشر جمهور واسع بمسيرة سحب معه فيها عصبة الجامعيين المتحمسين لإكتشاف وجه جديد لرابليه، رابليه الشامان العاري الذي رمى بعيدا من فوق الطواحين رداء وقلنسوة الدكتوراه، قافزا نحو الشعب الطيب ليفتح لواء إنقلاب إبداعي في اللغة بخاصة.

هكذا هو بطل القطيفة، الإنقلابي في لغته، كما قدمه (فرانسوا بون) (23) أو ميشيل بوتور الذي بعد أن قال ببطلان تكنيك الردع للكاتب عن الإنطلاق في اللغة المهذبة عزا الى رابليه خلق هذه العداوة الثقافية بين الشعبي و (المهذب) (24). نذكر أيضا (كاترين ميلكو فيتش-ريو) التي بينت أن نص (ألبير كوهين) كنص رابليه يولد من التجدد الذي يخلق صلة بين الجسد والعالم واللغة (25). عرف (لو كليزيو) كيف يعبر عن الطاقة الثورية لمفهوم ثقافي لا يتطلب المصادقة المتحمسة عليه من المؤرخ فقط بل ومن المبدع أيضا، وحسب رأيه، فإن باختين أوضح أن الثقافة لن تتخلص من التصلب والتفاهة إلا إذا تنشطت تعابيرها بالإتصال مع شعائر وأعياد وأساطير الشعب. يشابه وضع كتاب اليوم في الواقع وضع رابليه في المرحلة التي يدرسها باختين. إن للجماهير الشعبية متنفس في اللغة التي تنطوي على قوة ناقضة ومطمئنة معا. الفن الشعبي، التعبير الذي يوجهه كل إنسان لكل الناس، هو الحل للقلق الذي تخلقه هيمنة الأدب المتحذلق، وأية ثورة لايمكن أن تكون مستمرة دون الثورة اللغوية (26).

تمزج أسطورة رابليه وأسطورة الإبداع الثقافي الشعبي مواضيعها المعظمة، هكذا تبدو الثقافة الشعبية جوهريا بوصفها أدبا مجددا ينقل بواقعيته قيم فن شامل (27). الحق يقال بأن الأرضية كانت مهيأة إذ أن ثورة الطلبة في آيار 1968 بفرنسا طرحت تعبيرا واضحا ومتماسكا وجد باختين من جانبه صيغته الإيحائية المعبرة بدورها عن أحساس عام مشترك أصلا في عمل رابليه رغم البعد الزمني بين الحدثين (بين عمل رابليه وآيار 1968-المترجم).

الملاحظات التي كتبها (جان-لوي بارو لإخراج عمله الشهير (لعبة مأساوية في جزئين مستمدة من خمسة كتب لفرانسوا رابليه) (28) تظهر الإنشداد الى ممارسة ثقافية مناضلة وستربط (سيمون غاباري-بيريه) (29) فيما بعد بلاغة هذا العرض (لعبة مأساوية.....) ببلاغة عمل باختين للمطالبة برؤيا أكثر تقدمية لتأريخ الأنظمة الدالة. حين حلل جان دورميون (مفهوم الثقافة وإستحالاته) (30) (المقصود الإستحالة بالمعنى البيولوجي دون تغير الجوهر-المترجم) بأسلوب مقنع أمام الأكاديمية عام 1976 كانت التصورات التي سمحت له بتعريف هذه الثقافة الجديدة ترتبط بأفكار أساسية نماها باختين لأجل عمله يجمعها تصور إنسان لم يعد يفضل الذات النخبوية بل الذات الجماعية، ويفضل جمهور القراء على

القارئ الفرد، تصور للزمنية يطرح مناقشة الإرث الثقافي أكثر من كونه توصيلا للتراث، تصور جمالي يرفض (الفن للفن) ويفضل العنف الآيديولوجي وقوة الآيديولوجية الخلاقة. وإجمالا فإن الثقافة التي تتحول الآن هي ، حسب رأي أورميون، ثقافة تصبح شعبية شيئا فشيئا مبتعدة عن النخبوية محافظة على خاصية التجمع. إن المرحلة الباختينية الوهاجة تجعل العودة الى منابع اللغة الشعبية متزامنة مع مفهوم الأدب الخصيب.

شاعت صياغات باختين وصار المفكرون ينطلقون من تفسيره للثقافة الشعبية ومن تحليله لرابليه ليوضحوا للقارئ نظرياتهم الخاصة. هكذا أمكن التوفيق، كما فعلت (كريستان لوفيرنيات–جاجنير) (31)، بين نقد العقليات الحاضنة التي عمل عليها رابليه حسب رأي باختين، وبين النقض الراديكالي الرافض للثقافة البرجوازية والدينية التي تبينها (جان باري) و (وميشيل بوجور) في عمل رابليه. يؤكد بوجور (32) منذ 1969 على تطوير نظريات باختين عابرا بها حدودها الآيديولوجية. يهدم رابليه بنى الخطاب مستفيدا من تعددية الدال، يهدم الثقافة الإنسانية لينقذ الأنسانية. ينطلق جان باري من جانبه في (بحث تأويلي سيمانطيقي للبنى العميقة في بضعة أعمال تصويرية وفي كتب فرانسوا رابليه الخمسة) من مناهج الألسنية الإستحالية (سبق شرحها–المترجم) ليبين أن رابليه يجعل النظام الإجتماعي الإقتصادي المستحضر في روايته ضمن صورة خيالية وكذلك أسسه الدينية التي تطرح تطبيقاته بين النظام السياسي والنظام السماوي (33). مع هذا الغرس الآيديولوجي فإن الإهتمام متعدد الأشكال بالثقافة الشعبية التي تعلن عن نفسها دائما في جميع الأوساط يدين بالفضل الكثير الى باختين. الدينامية التي يثيرها هذا الشغف تأخذه في حسابها البرامج الرسمية لوزارات الثقافة الفرنسية المتعاقبة مدرجا ضمن إرادتها السياسية لأهميته التأثيرية الفائقة. فمثلا كان هدف تشكيل (CNRS, IARCP 560) هو التدقيق في ملاءمة مفهوم الأدب الشعبي للخيار الذي تكرسه جامعات معينة في جنوب غرب فرنسا والذي يتبع طريقة إقامة الحوار بعد محاضراتها عن باختين (34) وليس صعبا كذلك إكتشاف آثار المفاهيم الباختينية التي يحتمل أن المحررين إستخدموها بشكل لاواع في تقريرهم لوزارة الثقافة والأتصال (ممارسات الفرنسيين الثقافية)1973–1989 (35).

التطبيق في زمننا للتأملات في العادات الأستهلاكية، في أسطورة النعيم الموعود، في التقاليد الفولكلورية، في إصطباغ العيد بالروابط (المهيمنة–المهيمَن عليها)، في تنوع (الكتابات)، وفق الرموز الإجتماعية (36). كل هذه ماكان ليكون لها الأثر نفسه لولا نشر باختين لكتابه (رابليه).

محاولات للإيضاح

إذن فقد كان (التأثير الباختيني) مباشرا، وعظيما، وتبين أنه تأثير دائم. لكي ننقده نستخدم مفاهيمه نفسها وتصوراته نفسها. شدد (أ. بيلو) وهو يرحب ترحيبا مهما بإسهامة باختين على حقيقة أن الناقد (باختين) لا يحافظ مع (الأزدواجية) أبدا على الرابطة نفسها التي حافظ عليها الكاتب (رابليه) دون أن يفسر التناقضات (37) كذلك رأى (يورغن فون شتاكيلبيرغ) الذي يعتبر أن العمل يتفسر بإنتمائه الى جنس من الأجناس. إن إحالة باختين الأساسية الى الثقافة الشعبية لصيقة بعض الشيئ بالنظريات الشكلانية الروسية (38). إنْ كان النقاد قد جددوا – بفضل باختين– مقترباتهم عن طريق توسيع مفهوم (المصادر) الإكتشافي فأن هذا يعني أفضليته في الأخذ بنظر الإعتبار الإسهامة العالمية لطراز معين من الثقافة.

يستطيع الكاتب دون شك أن ينعش أدبه حين يصل بالروح الشعبية جنسا إنسانيا كالفكاهة لكن لعبة كلمات الفكاهة الشهيرة، وأشكال المزاح تمنحها هذه الفكاهة للممارسات الحمقاء في المكان العام تنفع قبل كل شيئ في تسفيه سوقية هواة التورية في الكلمات من خلال طبيعتها الإعلانية عن المطالب التي لا يمكن توريتها. يمكن أن ينفع الكرنفال في تدعيم النظام القائم كما ينفع في طرح بدائل ممكنة لهذا النظام (39). واضح أن معركة رابليه هي معركة إنجيلية إنسانية ينبع مسعاها الهدام من كاتب باحث (40). إن الهجاء الذي صاغه رابليه من سذاجة الشعب، حسب رأي (كارول كلارك)، هو عكس (الشعبية المنطقية) التي ظهرت بعد باختين. الثقافة المسماة (شعبية) هي ثقافة الجمهور الواسع (Every man's culture) الذي يعبر عن نفسه الآن بأعمال مكتوبة توصل الى الأذهان دعاية مدينية هي نقيض للتقاليد السوقية (41).

وهكذا فالتحفظات والإنتقادات، المصاغة من جهة المصادر التأريخية التي لم يكن يستطيع باختين الحصول عليها في بلده لعدم توفرها أو من جهة منهجه وإستنتاجاته، تمس بشكل خاص تحليلاته لعمل رابليه لكنها لا تفعل سوى تقوية موجة المفهوم الجديد الديناميكي وشبه التنبؤي عن الثقافة الشعبية. لكن هذا النقد يمكن في النهاية أن يعترض حتى على صلاحية مفهوم الثقافة الشعبية. يعترضون بأنه لكي يعبر البائسون عن رؤاهم فإن عليهم أن ينطقوا بلغة ومقولات النخبة، وشهادتهم لا تُدرك إلا بأسلوب تفكير المثقفين. في رأس الطحّان الذي إستذكره الينا (كارلو جينز يورغ) نجد أن الهدم الثقافي سببه (برأي يورغ) خليط من الثقافة (المهذبة) التي جرى تمثلها بشكل سيئ، ومن الثقافة الشفاهية. (قوة الثقافة الشعبية ليست واضحة لنا إلا من خلال أحاديث رابليه) (42). إن الحوارية، حسب رأي (دافيد هيمان) ليست فقط أصل عقلية الشعب ولكن يوجد فيها بشكل خاص مونولوجية ونزعة محافظة ذات أصل شعبي (43). الأكثر راديكالية من قائمة الأخطاء التأريخية التي وضعها النقاد على باختين هي أصالة الثقافة (الشعبية)، والتي أثارها النقاد الحريصين على الفكرة التي يوجد أساسها عند باختين، فكرة إنفصام لايمكن عكس إتجاهه بين الزمن المستقيم للتأريخ والتجسد المادي والجسدي في دائرة يوتوبية لتجدد الثقافة التأريخي (رابليه ص 264 و 322). مع سيمون بيريه يرجع النقاد المعجبون بباختين الى التصورات الخالصة في كتابه (جمالية ونظرية الرواية) بطواعية أكثر مما يرجعون الى رؤيته الفخمة نوعا ما للتأريخ الأسطوري، رؤيته للتعارض بين الزمن الدائري والزمن المستقيم: (ليس هو مزدوج الكرنفال، دون رابطة له مع الثقافة الشعبية، ولكنه مزدوج الهجاء المينيبي menipee هو الذي يسمح بتفسير عمل بربطه مع جنس وليس طبقة (44) (مينيب menipee فيلسوف إغريقي من أتباع المذهب الكلبي عاش في حدود القرن الثالث قبل الميلاد وله مؤلفات هجائية- المترجم). حتى لو قاد مؤرخو الأدب والحضارة حملة الإعلان عن إنعدام دقة أو تفسيرات خاطئة تتعلق بمفهوم الثقافة المسماة (شعبية) والمعبر عنها بحق في كتاب باختين عن رابليه فإنهم أساسا يعرفون فيه المبادر النابغة في الحب الخصب للإطلاع وفي بحوثه الأخاذة في ميدان الحوار بين الثقافات وكانت نتيجة الإنتقادات هي التعريف بشخصية باختين الجذابة بشكل أفضل. إكتشف قراء العالم الغربي رابليه من جديد في الوقت الذي كان فيه زلزال تأريخهم الثقافي يشيع الإضطراب في التعليم والتقاليد ويعيد الى دائرة الضوء جذورا أخذوا يتفحصونها بذهول.

إستشعروا بأن هذه النصوص التي جاءت من وراء قضبان عقيدة شيوعية تصطدم بها نظريات شكلانية لا تستحق فقط تدريسها بل توصل رسالة شخصية من رجل يعيش حيث رجال الرقابة يشرفون على المرفق الثقافي.

المجلد الذي طبع تكريما له عام 1977 في الإتحاد السوفييتي كان بحاجة الى نبذة سيرية عنه (45) وفي عام 1978 ظهرت في ترجمة (جمالية الرواية) صورة قلمية له كتبها (سيليفير ستوف)، ملامح ناحلة، نظرة قلقة ولكنها ثاقبة وقد نشر (تزفتان تودوروف) عام 1981 سيرته وفيها بدت أسس مفاهيمه أكثر صفاء وأصبح واضحا أنه يستوعب تحت تسمية (الثقافة الشعبية) الإرث الشعبي الروسي الذي بقي حيا رغم جهود partizdat الرسمية الضخمة. إطلعنا على مداخلته للدفاع عن إيمان الشعب الكاثوليكي الصغير. صدر تقرير عام 1981 بخصوص مؤتمر عن (الله والأشتراكية) أشار الى أن (رفيقا) يدعى (باختين) يقلقه (أن الأشتراكية لاتهتم بالموتى) وحسب رأيه فإنه (سيأتي يوم لن يغفر فيه لنا الشعب) (46). لم تستطع الرقابة تحمل هذا الفكر الحر المتجذر في ثقافة شعبية تعبر عن كل ما يعتقد أن الآيديولوجيا الرسمية قد حجبته عن اللغة المشتركة. تحت تأريخ نظري لشعب تضطهده (رصانة) الطبقات المهيمنة ينقرأ بيسر تأريخ شعب يرمي هذه الطبقات بسهام النقد معبرا عن نفسه بدوره بـ samizdat غير رسمي معادل لمفهوم (الخلاف في الرأي)، فمثلا الروايات ذات النبرة الرابلوية التي تحدى بها (فلاديمير فوينوفيتش) السلطة تكشف مع ما فيها من مجازفة ومخاطرة، عن ثقافة تحت أرضية تعبر عن نفسها خفية عن طريق التحريف الكرنفالي الساخر من (رزانة) ودعاوى وخطابات (الرسمي) أو تفجر، في حفلات سكر وعربدة، أشكال (إنتقاص) منه عمدا، بألاعيب الكلمات الحمقاء اليائسة والدعابات العبثية الضارية (تعزل ماديا)، بالإحالة الى (الوضيع الجسدي)، بالإحالة الى غريزتي المعدة المعدة والجنس، تعزل الطغاة الكبار والمستكبرين الصغار، عن طريق المحاكاة والتشبيه، بسلخهم من بزاتهم المخوفة وعرضهم عراة يثيرون الضحك أو بأوضاعهم التي تحاكي الفزاعات الفارغة والتي تجهر بالرغبة الكامنة في رؤيتهم مشنوقين. إن ذهول رئيس التحرير (أيرمولكين) الرزين، أستاذ مادة (قواعد لغة الغابة) وهو ضائع وسط تهكم متعدد الأشكال من قبل أهل سوق شعبي سري هو ذهول رمزي (47). يقينا أن (رابليه) باختين كان الملهم لرائعة أدبية يتوجب تفسيرها

بالتحليل الباختيني للثقافة الشعبية. عرفنا أخيرا أن العمل الذي أعتبر، أكاديميا، ذا بناء آيديولوجي كان عملا يهتز صدقا بقراءة حساسة ومشبوبة العاطفة نحو النصوص الأدبية العظيمة (48).

كذلك كان من غير المنطقي أن نرى في باختين منظرا يعتبر الثقافة الشعبية شيئا لذاته، ميدانا معزولا على نحو دقيق عن جوانب ثقافية وطنية أخرى. على النقيض تماما فإن إستبصاره المركزي هو إستبصار لمغزى الحوار بين الحضارات:

" توجد صورة مزيفة [...] وفقا لها علينا أن ننسى ثقافتنا الخاصة، علينا لكي نفهم ثقافة أجنبية بشكل أفضل أن ننظر الى العالم من خلال عيون هذه الثقافة نابذين ثقافتنا [...] إن الإدراك المبدع لا يبخس حق نفسه، لا ينكر مكانه من الزمن، ولا يتنكر لثقافته. قضية الإدراك الكبرى هي أكسوتوبيا exotopie الذي يدرك – في الزمن والمكان الثقافة– وجوده بالإرتباط مع ما يريد إدراكه إبداعيا [...] في ميدان الثقافة. الأكسوتوبيا أكثر المحفزات للإدراك قدرة. الثقافة الأجنبية لا تكشف عن نفسها بأكمل وأعمق صورة إلا من خلال عيون ثقافة أخرى، دون إحتواء كامل قطعا، لأنه ستأتي ثقافات أخرى توسع الرؤية وتزيد الأدراك" (49).

يكون هذا الإدراك في ميدان ثقافة شعبية بالضرورة تناصا ثقافيا ويجب أن يكون مطروحا على المبدعين كما هو مطروح على النقاد الذين يتخذون لهم مكانا داخل أو خارج هذا الميدان. درس باختين لا يطلب منهم (معارضة الرزانة) الرسمية بثقافة طبقية بل الأخذ بنظر الإعتبار التعارض بين وضع فكري مونولوجي وبين فكر حي، فكر حواري:

" كثير من الإستخدامات الآيديولوجية تشوه (إستخدامات الصفات المميزة للشعبي) بتحديد غير واف لهوية وآيديولوجيات سياسية" (50). يولد الوعي الثقافي، حسب رأي باختين، بإتصال عدة لغات أو ثقافات (رابليه. ص 461–469). إن "الشعب" المقصود في الواقع هو الشعب المزيج، الواعي حقا لوضعه البشري بحيث يستغل مناسبة مثل إحتفالات عيد المجانين ليجعل حدود الشعائر الشعبية المنتقصة من الرسمي والمجددة للقوى محاذية لحدود الثقافة الرسمية (رابليه. ص 83–86). يبين (ميشيل جانيريه) أن الإنتقاص بالمحاكاة الساخرة ليس هدما ولكنه تحديدا (حيز حرية فيه القانون معطل مؤقتا، وهو لهذا ليس تهديميا بل منشط ومنفتح

الى درجة إحتواء نقيضه، الأسفل المزدوج يحل محل الأعلى دون أن ينكره) (51). إن كان الكرنفال يدشن تواجدا مشتركا للمتضادات فإنه يدل على إنتصار الفوضى بتغلغلها في الرسمي لتتطفل عليه من الداخل، إنتصار ما نسميها (الثقافة المضادة) نافذة بشعائرها وعاداتها المستهجنة داخل معايير الجمالية الأكاديمية (الكلاسيكية).

الثقافة الحية تزدهر عند (لوسيات ساموسات) و (بيترون) و (ديستوفسكي) و (سرفانتس) مثلما تزدهر عند رابليه. عناصر أساسية لثقافة الشعب تخصب ثقافة (مهذبة) تواقة لأخذ مكانها داخل إرث إنساني رسميا، وبالمقابل تنبث مبادئ و دوافع ثقافة رجال الثقافة داخل الثقافة الشعبية. كل عمل أدبي عبقري هو حقل علاقات مفتوحة. إن الحوار مطرزا بالتساؤلات والأجوبة هو ما يميز ثقافة منشطة بإستمرار وعلى حذر من خطر المونولوجية الناخرة في قلب هذه الثقافة نفسها، ثقافة تتظاهر بأنها تخلق نموذجا ناجحا شامخا. إن الخضوع الى تسوية ثقافة لا ملامح خاصة لها والعكوف على الحنين لأكاديمية ثقافة (عامة) كالحلم بعقيدة يوتوبية لثقافة طبقية هو بالضبط نكران للخاصية المنفتحة لثقافة وصفها باختين بال(شعبية).

==========

المصدر

Esprit mars- avril 2002

2. M. Bakhtine, l'euvre rabelais et la culture 'populaire an moyen Age et sous la renaissance, trad. Par Andree Robel, Paris, Gallimard, 1970,471 p.

3. Simone perrier, « Petit voyage en Bakhtinie», Europe, mai 1992, p. 9299.

4. Voir les analyses donnees par S. Perrier, «petit voyage en Bakhtinie», art. Cite,et «de- mesure pour demesure. Le Rabelais de bakhtine», Magazine», Magazine litteraire, mars 1994, p. 51-52,

Gerard Milhe poutingon, Francois Rabelais.Bilan critique, Paris, Nathan,1996, p. 17-23, Martin F lél n a g an, Ba k h t i n and Fi lr"l ' University of Sheffeld, 1998, ou encore Viktor Beilis, " Ghosts, people and Books of Yorubaland", Research in African Literaures, XVIII, 1987, p. 447 -457.

5. A. Belleau« Carnavalesque pas mort?» In marc Angenot et al., Bakhtine, montreal, Presses Universitataires de Montreal, 1984, P. 37 -44. Voir aussi Daniel Fabre, Carnaval ou la Fete a l'envers, Paris, Gallimard, 1992.

6. Karel Krejei, « La muse du faubourg et sa carriere litteraire», in Michel Cadot, Milan Dimie et al, Actes du 6 congres de l'Assocition internationale de litterature commparee, Stuttgart, E. Bieber, 1975, p. 753-756. Les concepts bakhtiniens ont une fonction pratique et taxinomique: voir par exemple la section « Heritage populaire », panneau 12 (Le ventre, Le carnaval) du Catalogue de l'exposition bibliotheque municipale de Tours, ed. Par J.- C. Rabelais a la Margolin, 1984.

7. Aage Hansen - lowe, » Karnevalisierung der Litertur. Zur Romantheorie Michail Bachtins« [Carnavalisation de la litterture. Sur la theorie du roman de M. Bakhtine], Wort andWahrheit, Speeialiste de rabelais et de la litterature populaire XXVII, 1972, p. 522-531.

8. Michael D. Bristol, carnival et theatre. Culture and the Structure of Authortty in Renaissance England [Carnaval et theatre. Culture

plebeienne et structure d'autorite en Angleterre a la Renaissance], New York- Londers, 1985.

9. Par exemple, john park!n explique certains passages de Rabelais en se referant au concept de carnaval (" Rough Justice in Rabelais in Glasgow, Glasgow, 1984,p. 125-144.

10. Hans Robert Jauss, » Der Rabelaisische " Held" ais Gestalt des grotesque] Asthetische Erfahrung und literarische Hermeneutik, Munchen, Fink, vol. 1, 1977, p. 275-282.

Il. Andre Belleau, Bakhtine et le multiple», Etudes francaises, VI-4, 1970, p. 480-487. Analyes confirmee par les observations d'Antonine Maillet, Rabelais et les traditions popularires en Acadie, Quebec, Presses del'Universite Laval, 1971.

12. Michel Jeanneret, Polyphonie de Rabelais: ambivalence, antithese et ambiguite», Litterature, LV, 1984, p. 98-111.

13. Voir Olivier Mongin, Eclats de rire. Variations sur le corps comique.Essai sur les passions democratiques III, paris, Le Seuil, 2002, p. 213,272 et 219220 pour un resume des analyses de serge Daney.

14. Andre Belleau, « Le decrochage des signes. Rabelais comme lieu linguistique pluriel», Liberte, CXV, janvier - fevrier 1978, p. 68-82 (reproduit dans Y a-t-il un intellectuel dans La salle? Montreal. 1984). On lira egalement avec profit Louis Marin. « Les corps utopiquse, Leuz d'espace, Paris, Minuit, 1973.

15. Voir notamment M. Bakhtine, Esthetique et theorie du roman, Paris, Callimard, 1978, p. 122-151.

16. Voir L'item n25 des 43 entrees recensees dans la bibliographie de Bakhtine par Tzvetan Todorov, Mikhail Bakhtine. Le principe dialogique, paris, Le Seuil, 1981, p. 173,::176; Dialogisme et polyphonie. Travaux du Centre de recherches semiologiques de L'universite de Neuchatel, avril 1986; A. Belleau, « Du dialogisme bakhtinien a la narratologie», Etudes fran-caises, XXIII, 1988, p. 9-17; M. Holquist, Dialogism, Bakhtine and his World, Londres-New York Routledge,

1990.

17. Robert L. Wilson, " play, Trasgression and Carnival: Bakhtine and Derrida on Scriptor Ludens ", Mosaic, XIX, 1986.

18. Voir par exemple les exposes ou henri weber rapproche les conceptions de bakhyine et l'ideologie de h. Lefebvre: «sur quelques nouvelles tendances de la critique» ,in g. Gadoffre (sous la director de) ,rabeelais est- it actuel?, Loches, institut collegial curopeen,1974,p.37 -39; et «la methode marxiste et les etudes sur la renaissance. L'exemple

derabelais»,renaissance etnuvelle critique, actes du quatrieme symposium sur la renaissance, octobre 1975, suny, albany - valencia, artes graficas soler, 1978, p. 91-102.

19. Voir vitali tretiakov, «rabelais a la lelevision sovietique», etudes sovietiques, mai 1977. Resume dans le bulletin des amis de rabelais et de la deviniere, 1977, p. 269.

20. Voir par exemple «rabelais el gogol. Art du recit et comique populaire» (1940), in m. Bakhtine, esthetique et theorie du roman, op. Cit, p. 476.

21. Citons la compilation d'a. Kruper, rabelais' stellung zur volkstumlichen literatur la position de rabelais relativement a la litterature populaire,darmstadt, g. Otto, 1909;gean plattard, l'adolescence de rabelais en poitou, poitiers- paris, 1923. Pour le folklore, une place a part doit etre faite aux travaux precurseurs d'ho Dontenville et au genial et foisonnant a plus haut sens de ci. Gaignebet, paris, maisonneuve et larose, 1986.

22. Un compte rendu en teheque par otakar novak, sbornik praci filosoficke fakulty brnenske university, 1967. P. 155- 158. Des 167, julia kristeeva mettait a profit sa competence linguistique pour le reveler dans critique, XXIII,p. 433465.1a tradtion anglaise la ferveur non seulement de la french review, xliii (1969),p. 190.191 (par M.Beaujour),ou de la romanic review, LXII (A. Kller, 1971), mais, enter autres, de la quinzaine litteraire du 16 mars 1969 (ray ortali) et du bulletin des amis de rabelais et de la deviniere 1969. P.261262 (m. Francon), et 1970, p. 312 (r. Vivier). Quant a la traduction francaise , elle fut immediatemenet saluee par un troisieme compte rendu dans le meme bulletin (R.Vivier, "Rabelais

et la culture populaire "),et aussi par La Pensee. CLXII(Y.Benot, avril 1972), par Les Letters Francaises,MCCCLXIX (Hubert Juin 20 janvier 1971) ou Europe, DXIX-DXXI (B.Didier, jullet septembre 1972), sans computer Le Monde du 27 janvier 1970,p.15 (A.dalmas). Etc.

23. Francois Bon, la Fplie Rabelais, Paris, 1990. Lidee que la Renaissance fut le lieu d'une anxieuse remise en question du language apparait dans uene discussion qui eut lieu en decembre 1970(Entretiens du Cercle Polivanov) et dont rend compete Jean Paris a la suite de son Hamlet et Panurge,

/ Paris, Le Seuil, 1971.

24.Michel Butor,"Le parler populaire et les langues anciennes" . Barrault, Cahiers de la Compagnie Madeleine Renaud -Jean -Louis septembre 1968, p.83-98(Reflexions reprises dans Repertoire IV)

.

M.Butore et D. Hollier ,Rabelais ou c'etait pour rire. Paris ,Larousse, 1972

25. 'Des propos des "Bien IVf\;.s" aux rires des Valeureux. Jouissances et rejouissances rabelaisiennes dans le roman cohenien' , Cahiers Albert Cohen, VI ,1996,p.9-45.

26. 'La revolution carnavalesque' , La Quinzaine litteraire, CXI, fevrier 1971, p.1-5.

27. Voir par exemple Helga Militz', Rabelais. Vom Volksbuch zum Weltbuch '(Rabelais. Du livre populaire auu livre universel), dans Realismus in der Renaissance, Weimar-Berlin, Aubau Verlag , 1977 , p.437 -521.

28. Jean -Louis Barrault, 'Jeu dramatique' en deux parties rire des cing livres de Fracois Rabelais, Paris, Gallimard, 1968, 200p.

29. S. Gabay -Perrier , 'Rabelais : des annees 30 a 1970', Litterature, 1, fevrier1971, p.116-119.

30. Jean d'Ormesson Revue des travaux de l'Academie des sciences morales et politiques, CXXVI-1 ,1973 , p.211-221, avec une discussion animee .

31. Christine Lauvergnat Gagniere , 'Le libertinage de Rabelais dans la critique contemporaine', Aspects du libertinisme au XVI siecle, Paris, Vrinn, 1974, p.50-57.

32. M.Beaujour , le jeu de Rabelais, Paris, L'Herne, 1969.

33.Jean Paris, Rabelais au futur, Paris, Le Sseuil , 1970.

34. Voir Gabriel -Andre Perouse , ' Les livres populaires francais au XVI siecle', Letteratura popolaare di espressione frances, Colloque de Bari, 1981, Fasano, Schena, 1983; et G.Demerson et G.-A.Perouse (sous la dir.de) , livres populares du XVI siecle ,Paris, CNRS, 1986.

35. Ministere de la Culture et de Communication, les Pratiques culturelles des Francais . 1973-1989, Paris, La Documentation francaise, 1990. 'Press, 1987. P. 32sq

37. A. Belleau ,"Problemes et limites de la critique rabelaisienne", in R. Legris(sous la director de), L'ceuvre litteraire el ses significations, Montr'eal, Presses de l'Universit't du Qu'ebec, 1970(reproduit dans A. Belleau, Notre Rabelais, 1990).

38.Jurgen von stackelberg, von Rabelais bis Voltaire. Zur Geschichte des franzosischen Romans, Munchen, C. H. Beek,1970, p.13-73. Voir Henri Meschonnic, "La po'etique de l'histoire chez bakhtine" , Les Cahiers du Chemin, 1Sjanvier1971, p.127-139.

39. Guy Demerson , " Les fac'eties chez Rabelais" , Studi Francesi, LXIV, 1978,p.112(repris dans G. Demerson , Humanisme et face'tie, 1994, p.3S-S4); NathalieZemon Davis, lesCultures du peuple, paris, Aubier, 1979, p. 166 et186-188;voir Diane DesrosrersBonin,Rabelais et lhumanisme civil, Geneve, Droz, 1992, P.68: lier a lambivence du carnaval le motif du monde renverse, c'est ignrer quïly ala une veritable inversion des valeurs sans lien avee la culture populaire; Barbara C.Bowen: l'explication Par le caraval est un automatisme non pertinent(Enter Rabelais, Laughing, Vanderbilt University Press, 11998, p. 70.71 et 110).

40. Voir Michel Baraz, Rabelais et la joie de la liber1e, Paris Jose Corti, 1983; Florence Weinberg, Rahelais et Les lecons du

rire, Orleans ,Paradigme, 2000 ,p.25 Rabelais ne pouvait etre compris que des erudits; pour s'adresser aux couches proletariennes, il aurait du garder l'habit franciscain ;pour Jerome Schwartz, Irony and Ideology in Rabelais. Structures of Subversion, Cambridge University Press, 1989, la dialectique officiellpopulaire est reductrice et staique. C'est l'ironie prevoltairienne qui compte pour ridiculiser les superstitons populaires; voir G. Demerson, "Jeux et passe. temps", inM. Simonin(sous la director de), Rabelais pour le xxie siecle, Geneve, Droz, 1998, p. 121: Rabelais defenseur de l'ordre civl conter la betise des diverissements populaires.

41.Carol Clark, "The only Languag'd Men of ail the World'. Rabelais and the Art of the Mountebank"[Les seuls hommes au monde saehant parler. Rabelais et l'art du bonimenteur], Modern Language Review, LXXIV, 1979, p. 538.552. Voir aussi paul Verhuyk, "Les mande.ments joyeux et Le mandement de Bacchus, Anvers 1580" , in M. Lazard (sous la director de),Aspects du theatre populaire en Europe auxvi siecl, paris, Sedes, 1989, p. 102; A.J. Goure.vitch, la Culture populaire au Moyen Age, "Simplices et Docti" , trad. Trad. Du russe par E. Balsamo ,Paris Aubier, 1990, et les travaux de Richard M. Berrong, Rabelais and Bakhtin . Popular Culture in Gargantua and Pantagruel, Londres. Lincoln, University of Nebraska Press, 1986; du memeauteur, "The presence and Exclusion of Popular Culture in Pantagruel and Gargantua (on

Bakhtin's Rabelais revisited)" , Etudes rabelaisiennes, XVIII, 1985,p.25sq.

42. Carlo Ginzburg, le Fromage et les vers, paris, Flammarion. 1980, p.211.

43. David Hayman, "Au-dei a de Bakhine . Pour une mecanique des modes", Ppetique, XIII, 1973, p.76-94.

44. S.perrier, "Demesure pour demesure. Le Rabelais de Bakhtine", art. Cite, p. 51-52.

45. V.V. Kozhinov et S.Konkin, "Mikhail Mikhailovitch Bakhtin ", Problemy Poetiki 1 Istorii Literaratury, Saransk, 1973, p. .5-19.

46. T. Todorov, Mikhail Bakhtine. Le Principe dialogique, op. Cit, p. 14. Voir Samuel Kinser, "Chronotopes and Catastrophes. The CItural History of M. Bakhtin", Journal of Modern History, LVI. 1984. P. 301-310.

47. Vladimir Voinovitch, le Pretendant au trone ou les nouvelles aventures du Soldat Ivan Tchonkine, Paris, Le Seuil, 1981. Voir aussi les Aventures singulieres du Soldat Ivan Tchonkine, Paris, Le Seuil, 1977.

48. Caracteristique est Par exemple r attitude critique d'Yvonne Bellenger, redigeant pour le Rabelais, au moment de sa parution, un compte rendu aS!ijez severe, mais lui adjoignant dix ans plus tard une note eclairee, pleine de sympathie("Lecture critique tardive"

,Berenice, novembre 1980, p. 30-40).

49. M. Bakhtine, Estetika slovesnogo tchvorestva[Esthetique de la creation verbale], Moscou, 1979, p.334. (Trad. Et eite par Todorov, op. Cit.,p. 168-169, qui commente: "La comprehension n'est donc pas envisagee uniquement comme un processus interpersonnel mais comme une relation enter deux cultures") .

50. R. Laborie, "Avant-propos" , in G. PoujdÎ et R. Laborie, les Cultures populaires. Permanence et emergence des cultures minoritaires locales, ethnques, sociales et religieuses, Paris, 1979. Voir aussi la mise au point de Daniel M_nager, la Renaissance et le rirre, Paris, Puf, 1995, p.5.

51. M. Jeanneret, "Poilphnie de Rabelais..." ,

(فيكو) وأصول الشعر

جيامباتيستا فيكو

*

آلان بون

يحمل عمل (فيكو) Vico الأكثر أهمية ، المطبوع بنسخته النهائية عام 1744 وهو العام نفسه الذي توفي فيه ، عنوانا يبين بدقة مقاصد مؤلفه (مباديء علم جديد متعلق بالطبيعة المشتركة للأمم) والغاية من هذا العمل تأسيس "علم العالَم" ، بالمعنى الأكثر قوة لمصطلح علم ، له ميزة اليقين المساوية لا بل والمتفوقة على علم الطبيعة المادية الذي إنصرف اليه حتى ذلك الحين العلماء والفلاسفة إنصرافا يكاد يكون كليا . كان يقينه متفوقا في نطاق أن لا أحد ، حسب رأي فيكو ، يعرف شيئا في حقيقته إلا حيث يوجد المعيار الذي خُلق له بحيث أن الله وحده الذي خلق العالم الطبيعي ، يمكنه معرفته ، وعلى هذا القياس وبمنطوق الصيغة المشهورة فأن ((هذا العالم المدني قد خلقه الناس بكل تأكيد وبالتالي يمكننا ، لأننا خالقوه ، أن نجد مبادئه في داخل نفسنا البشرية)) 331 (1) .

درس فيكو هذا العالم البشري ليس من خلال الكلية المجردة لما ندعوه (الجنس البشري) ولكن ضمن حقائقه المادية تأريخيا ألا وهي الأمم التي كان عليه أن يميز المشترك بينها ، (طبيعتها المشتركة) . إن الأمة Nation والطبيعة Nature هاتان الكلمتان تحيلانا الى الفعل (يلد) Naitre . الأمم مثل الناس الذين يكونونها ، تولد ، وتتطور ، وتموت . تمنح لها طبيعتها مع ولادتها، وتتكشف هذه الطبيعة بالإبانة عبر الزمن ، وهو مالم يدركه حتى ذلك الوقت الفلاسفة الذين أرادوا رؤية الإنسان بحد ذاته ، الإنسان الأبدي ، نتاج التطور ، يعني الإنسان الغربي ، الحديث ، المسيحي ، الرشيد ، العالم ، المتمدن . لم يكن الهدف بالنسبة الى فيكو نكران هذا الإنسان ، بل كان هدفه هو أن يفهم ماالذي سبقه ومن سبقه ؟

بربرية الحس

هكذا نقع على الأسباب التي من أجلها ساق فيكو في كتابه جوهري أبحاثه في ما يدعوه العالم الإنساني (الوليد) وأيضا العالم الإنساني (الطفل) . لم يدفعه فضول آثاري بسيط ، لكن الدافع بالنسبة اليه كان فهم (أصول) الأمم وهذه الأصول لا نعرف عنها شيئا ، إنها مطمورة في ظلمات كثيفة ، ولكي يبدد هذه الظلمات قدر لتبديدها أن يستخدم أداتين ، الأولى فلسفية والثانية فقهية لغوية . الأولى كما رأينا هي تحليل عقلنا الإنساني ، والثانية هو مايدعوه (شظايا) العصور القديمة تحت شكل التقاليد الموغلة في القدم ، الأساطير ، والخرافات التي حافظت عليها بعض الأمم ، وبخاصة ، الكنز الذي لاينفد للميثولوجيا الإغريقية التي ليست في الحقيقة سوى فكر ديني وثني . لقد سمح لفيكو الجمعُ بين الفلسفة وفقه اللغة ، وهو الهدف الذي زعم تحقيقه في علمه ، أن يصعد بثقة الى المنابع .

النفس البشرية مكونة من ثلاث مَلَكات ، ملكة الحس ، وملكة الذاكرة والتخيل (المخيلة ليست ، حسب رأي فيكو ، سوى الذاكرة الممتدة عبر الزمن والمركبة) وأخيرا ملكة التفكير . هذه الملكات تتطور على التوالي في الفرد فتضعف الملكتان الأولان ، دون أن يختفيا ، بمقدار ماتترسخ الثالثة وهذا يعني أن ((المخيلة تكون أكثر قوة بمقدار مايكون التفكير المنطقي أكثر ضعفا)) 185 ، وبشكل خاص فإن ((المخيلة عند الأطفال نشطة للغاية)) . إن عمل فيكو

كله منذ كتاباته الأولى هو دفاع عن المخيلة التي إنتقدها (ديكارت) دون هوادة ناسبا اليها كل الأخطاء (من المناسب هنا إستذكار ماقاله بوالو من أن ((فلسفة ديكارت ضربت عنق الشعر))) . والحالة هذه فإن ما يحصل عند الأطفال يحصل عند الأمم . يتوافق تطور الفرد مع تطور الإنسان . إن الأطفال وكذلك المتوحشين الذين يحدثنا عنهم الرحالة والمبشرون يساعدوننا في فهم ما كان عليه البشر الأوائل ((المهاجرون داخل الجسد)) حيث الحس كله والشغف كله والمخيلة القوية كلها مجردة من اللغة والعقل ، يساعدوننا كذلك في فهم كيف أن هذه الكائنات المسفلة الى حالة شبه حيوانية أصبحت خالصة في إنسانيتها ، كانوا بشرا صافين لأنهم كانوا شعراء . يعبر فيكو عن هذا قائلا بتفاخر :

((كانت شعوب العالم الوثنية الأولى شعوبا شاعرة بحكم الضرورة الطبيعية . كلفنا هذا الإكتشاف ، المفتاح الرئيسي لهذا العلم ، بحثا دؤوبا طوال حياتنا الأدبية تقريبا لأننا بطبيعتنا المتمدنة يستحيل علينا قطعا تصور ، كما يشق علينا فهم ، الطبيعة الشعرية للبشر الأوائل)) . 34

الحكمة الشعرية

نلاحظ فورا أن كلمة ((شاعر)) ليست تعريفا لإنسان يمارس جنسا أدبيا محددا ، يمارس ((فنا)) له قواعده وتأريخه . يزول كل لبس إذا ما تعلق حديثنا بدلا من ((شاعر)) و ((شعر)) بالصفة ((شعري)) التي إستخدمها فيكو إستخداما بالغ السعة ضمن سياقات تضم كل مرجع جمالي لفن الكلام والكتابة . لقد عرفت طبيعة البشر الأوائل بإعتبارها ((شعرية)) كليا ، وكل ما يخصها هو ((شعري)) . هكذا نجد الكتاب الثاني من ((العلم الجديد)) الذي يحتل لوحده نصف العمل والمعنون (الحكمة الشعرية) ينقسم الى ((الميتافيزيقي الشعري)) و ((المنطق الشعري)) و ((الخُلُق الشعري))، و ((الإقتصادي الشعري)) و ((السياسي الشعري)) و ((التأريخ الشعري)) و ((المادي الشعري)) و ((الكوزموغرافي الشعري)) و ((الفلكي الشعري)) و ((الوقائعي الشعري)) و ((الجغرافي الشعري)) .

نرى أن مفردة ((شعري)) هنا هي المعادل لكل ما يعلن عن وجود البشر الأوائل في العالم وعن الطريقة التي يفهمونه ويعيشونه بها . يكتب فيكو ((البشر يحسون أولا دون أن يلاحظوا ، ثم يلاحظون بنفس مستثارة قلقة ، وأخيرا يتأملون ببصيرة خالصة)) 218 . هذه المسلمة تنطبق على الأمم كما تنطبق على الأفراد ، وقد كرس دون شك الجزء الأكثر أصالة من عمله لدراسة هذه النفس القلقة المستثارة بمخيلة غاية في النشاط يصفها بالشعرية .

عندما يريد أن يفسر لماذا كان فهم البشر الأوائل للعالم شعريا بشكل مطلق يلجأ الى نموذج الأطفال ((إن العمل الأكثر سموا للشعر هو منح الشعور والعاطفة للأشياء المجردة من الإحساس ومن ميزات الأطفال أن يتناولوا بأيديهم أشياء لا حياة فيها ويكلمونها في لعبهم كما لو كانت أشخاصا ينبضون بالحياة)) 186 . ويضيف ((هذه الهبة (البديهية) الفقهية الفلسفية تثبت لنا أن بشر العالم الطفل كانوا بطبعهم شعراء سامين)) . هذا الإسقاط للذات على العالم الخارجي يتأتى ((بفعل الطبيعة المبهمة للعقل البشري ، حين يسقط في مهاوي الجهل ، يجعل الإنسان من نفسه معيارا للكون)) 120 . إذن ((إنطلاقا من نفسه يصنع عالما قائما بحد ذاته)) . الصيغة مدهشة ويذكرنا فيكو أن poetes في الإغريقية جاءت من فعل Poiein الذي يعني يصنع ويخلق . يخلق الإنسان البدائي عالما يكون عالما خاصا به ، عالمه هو دون غيره .

لكن ما هو عند الطفل حوار ودي مع شيء له صورة وشكل فإنه عند البشر الأوائل الذين لم يكونوا سوى جسد ذي إحساس ومخيلة هو عبارة عن رابطة مأساوية يختلط فيها الذهول والرعب والدهشة والإعجاب والتساؤل . إن عمل المخيلة يهيئ ((للسامي)) لأنه يسكن العالم الطبيعي بماهيات تصبح آلهة على مثال الإنسان ولكنها متفوقة عليه تفوقا لا حدود له . إن الصفة ((سامي)) المستعارة عند لونجان Longin وفي البلاغة الكلاسيكية والتي يربطها فيكو على الدوام بالموصوف ((شعر)) قدر تعلقها بشعر البشر الأوائل ، تستحق معناها في الرقي نفسه والقوة المذهلة لنتاجات مخيلتهم .

إن مأثرة فيكو العظمى هي أنه فهم أن الميثولوجيا الإغريقية التي هي ثيولوجيا وثنية كانت في الحقيقة لغة، لغة شعرية كون بها الذين يسميهم فيكو ((مؤسسي الأمم)) تجربتهم للعالم ، وبها أعطوا لهذه التجربة معناها ، ونظموها بالإفلات من مد الأحساس الذي لا ينقطع ،

ومنحوا أنفسهم وسائل التواصل حتى قبل أن ينجزوا الكلام البين . إذا كانوا يستحقون إسم ((الشعراء الثيولوجيين)) فلأنهم درسوا كلام الآلهة ليفهموه ، وسأطلق على هذا الكلام وصف ((بلاغة الآلهة)) . إن الآلهة والأبطال في الميثولوجيا هم من سماهم فيكو ((خواصا شعرية)) وأيضا ((كونيات خرافية)) بمعنى أن المخيلة خلقتهم . إن البشر الأوائل الذين لم يكونوا قادرين على التفكير المجرد المعنوي ((جعلوا لمعظم الماهيات الحية صور آلهة وأبطال يرجعون اليهم كل صنف أو كل قضية)) 34 . يقول فيكو أيضا أنهم صور بقدر ما هم ماديون جسمانيون كل على حدة يرجعون اليهم كل ما يتخيلونه ويرونه وحتى كل ما يفعلونه ، وبهذا فقد كانت لهؤلاء الأبطال والآلهة وظيفة معمِّمة تسمح بالسيطرة على تنوع المحسوس ، بإجتباء حالات الدوام ، تسمح بإقامة روابط تجاور وتشابه، وبإختصار ، روابط تفكير وفعل . هكذا يعني جوبيتر Jupiter كل ما يتعلق بالدين تحت أشكاله البدائية (الكهانة ، وإستشارة العرافين ، والأضاحي) وجونون Junon تعني كل ما يتعلق بالزواج والعائلة ، وهرقل البطل يعني الكفاح ضد الطبيعة الخارجية وإستصلاح الغابة البدائية العظمى وكذلك كفاح الإنسان ضد طبيعته الداخلية التي تنطوي على صفات بهيمية .

هذه ((الخواص الشعرية)) كانت في الوقت نفسه ((أساطير صغيرة)) تبلور حكايات حقيقية وليست ألعاب خيال مجانية . إنها حقيقية لأنها ، بالنسبة الى من يعرف قراءتها ، تكشف ليس فقط عن ما كان البشر الأوائل عليه بل وأيضا عن ما كانوا يفعلونه ، ويرتدونه من أزياء ، وعن أسلوب حياتهم ، وبإختصار تكشف عن مؤسساتهم الإجتماعية والسياسية .

إن تخيل الآلهة في الحقيقة ليس دون عواقب ، يحب فيكو أن يذكر عبارة Tacite(تاسيت) *fingunt simul creduntque* التي تعني ((يتخيلون ويصدقون ما يتخيلون)) ، هذه الآلهة ليست سوى إنعكاس لشخصهم بالذات ، يؤمنون بها ، يؤمنون بأنها تأمرهم وأنهم يطيعونها . هكذا فإن تطور الأمم كله أصله في لحظة أولية ينسق فيكو قصتها مع قوة شعرية سامية بحق . كل شيء يرجع الى اللحظة التي يكون فيها الذين يسميهم ((الوحوش الضخمة)) *bistioni* ، الذين يهيمون الى الأبد على الغابة العظيمة التي تغطي الأرض ، ((منذهلين)) بمعنى الكلمة ، يستبد بهم الرعب من الرعد والبرق ، يرفعون رؤوسهم ويرون هناك النذر التي يوجهها اليهم جرم عظيم هو السماء المعلنة عن غضبها ، هكذا يولد جوبيتر

، الأإله الأول وهو أيضا ، كما يقول فيكو ، ((الفكرة البشرية الأولى)) ، الخلق الشعري الأول . يقطعون ، وهم منجذبون الى الأرض ملتصقون بها ، تطوافهم الجنسي ، ويستقرون في مكان ما ، مع زوجة (محددة) ، وأطفال (محددين) ، مع الدين تحت شكله الأكثر خشونة ، تتواصل ولادة العوائل ، وتبنى الحواضر ، وتزدهر الفنون ، ويظهر الفكر الفلسفي الى أن تدرك الأمم ((إنسانيتها)) الكاملة ، وبكلمة أقل قوة ، تدرك ما ندعوه ((حضارة)) ، فنعبر من عصر ((الآلهة)) الى عصر ((الأبطال)) وأخيرا الى عصر ((الناس)) . إذن يمكننا القول أن التأريخ البشري ولد من الشعر .

هوميروس

إنفصلنا عن الشعر المؤسس للعالم الأنساني . بقي لنا أن نتبع الشعر الى اللحظة التي أصبح فيها ((فنا)) بين فنون أخرى . نحن نعرف أنه أصلا لغة ، منذ البداية في عصر ((الآلهة)) ، يعني منذ مرحلة العوائل المبعثرة ، لغة خرساء لأن قاموسها هو الآلهة التي لا حصر لها والتي تسكن الأرض . يتواصل البشر بالإشارات أو بأشياء مادية ذات دلالة ، هذه اللغة يسميها فيكو كلاما ((واقعيا)) منشأ بأشياء ، هي نوع من الكتابة الحسية والمادية . كان يمكن لفيكو أن يقول ، فيلقى قوله إهتمام الكثير من الفلاسفة وعلماء الألسنيات ، أن الكتابة سبقت الكلام .

تبعت هذه اللغة الخرساء لغة عصر الأبطال وذلك عندما نظمت المجتمعات الأولى سياسيا تحت قيادة زعماء أنزلوا أنفسهم منزلة الأبطال ، أي المتحدرين من أصلاب الآلهة . هذه اللغة بقيت خرساء تعبر عن نفسها في الأعم الأغلب بالعلامات والرموز والشعارات الغنية بالإستعارات والصور والمحاكاة والتشبيهات التي كونت فيما بعد كل مصادر التعبير الشعري عند ظهور اللغة البينة . إن اللغة البينة ، في الحقيقة ، إنحدرت من أغاني وأناشيد بشرنا الأوائل ومن المحاكاة الصوتية لأشياء الطبيعة خالقة أول مرة لغة على شكل شعر موزون بحيث يمكن القول أن البشر تكلموا شعرا قبل أن يتكلموا نثرا .

يسمي فيكو اللغة الثالثة ، التي تنتمي الى الأزمنة الإنسانية والى الحواضر الديمقراطية ، لغة ((رسائلية)) ، لغة تناسب أناسا متباعدين يتبادلون فيها ((شرح ضرورات الحياة اليومية)) . إنها لغة النثر والكتابة ، وهي لغة الفلسفة أيضا .

ضمن هذا المخطط المتكلف نوعا ما والذي يعمد فيكو نفسه الى إيضاح فروقه الدقيقة يظهر الشعر بقدر ماهو فن بظهور هوميروس أول الشعراء وأعظمهم على الأطلاق بكل ماتحمله كلمة ((شاعر)) من معان . نعرف أن فيكو إهتم بهوميروس الى درجة أنه كرس للحديث عنه كامل الكتاب الثالث من علمه الجديد تحت عنوان ((عن إكتشاف هوميروس الحقيقي)) .

إذا كان هوميروس بالنسبة اليه أعظم الشعراء طرا فلأن هوميروس حفظ في شعره كل ما خلق طاقة وقوة الشعري البدائي الذي خلق به شعراء الأزمنة الخرافية الثيولوجيون عالمهم ، ولأنه هو الذي عرف كيف يترجم بالكلمات العمل المجازي السامي للذين خلقوا الآلهة وأرسوا أساس الأمم . إذن فهوميروس فيكو هو النقيض المقابل لهوميروس الشاعر الحكيم ، نموذج كل الكلاسيكيات ، كما بدا في القرن السابع عشر ، وبالمنظور نفسه فإن أخيل عند ((هوميروس الحقيقي)) ليس رجلا مهذبا من رجالات بلاط لويس الرابع عشر بل هو بربري فظ جلف ، ليس سوى ((خاصية شعرية)) لمحاربي العصر البطولي . وخلص فيكو الى التساؤل فيما إذا كان هوميروس قد وجد فعلا في زمنه بوصفه فردا تأريخيا وليس ((خاصية شعرية)) أيضا عرف الشعب الأغريقي نفسه فيها وإكتشف طبيعته الشعرية التي مكنته من خلق آلهته .

تطرح نفسها هنا مسألة شائكة . ضمن منطق هذا المخطط الذي يسميه فيكو ((التأريخ المثالي الأبدي)) والذي إتبعته الأمم كلها فإن الشعر القرين الطبيعي لأناس ((العالم الطفل)) ، العالم الذي لازال بربريا ، يبدو أنه لم يعد له وجود ممكن في الأزمنة الإنسانية المتمدنة تماما ، وقد أصبحت الفلسفة بديلا عنه بالمعنى الهيجلي لمصطلح البديل . هذا هو ما يبدو أن العديد من تصريحاته التي تنحو المنحى نفسه قد بينته :

((كل ما أحسه الشعراء في البداية في حكمتهم الفجة أدركه الفلاسفة فيما بعد في حكمتهم العصية على الفهم ، بحيث يمكننا القول أن المذكورين أولا كانوا حس الجنس البشري والمذكورين ثانيا هم عقله)) 363.

وأيضا :

((إن إفتقار البشر الأوائل الى المنطق العقلي هو الذي حباهم شعرا ساميا الى درجة أنه رغم النجدات التي جاءت فيما بعد من الفلاسفة والفنون الشعرية والنقاد ، أو بالأحرى بسببهم ، لم يظهر أي شعر آخر يتجاوزه أو يساويه في المنزلة على الأقل !)) 384 . فلنقدر حق التقدير هذه السخرية وهذا الإزدراء الموجهين الى فطاحل منظري الشعر !

دانتي

فأين ، في هذا كله ، موضع دانتي الذي يعرفه فيكو بوصفه ((هوميروس توسكانيا)) والذي يعود للحديث عنه مرارا بإعتباره شاعرا ساميا أيضا ؟ يقول فيكو إذا كان دانتي ساميا فلأنه ، على وجه الدقة ، عاش في عصر نظير لعصر هوميروس ((البطولي)) . برأي فيكو ، وهذه من آراءه الأكثر شهرة ، بعد إنهيار الأمبراطورية الرومانية فإن العالم الغربي المعتبر أمة واحدة عاد للسقوط في البربرية وكان عليه أن يقطع مجددا من البداية الطريق الذي لابد للأمم من سلوكه .. إنها نظرية Ricorso الشهيرة . إن ما نسميه العصر الوسيط هو إذن بالنسبة الى فيكو عصر ((البربرية العائدة)) ، عصر الآلهة والأبطال ، والفرق الوحيد هو أن الأله المسيحي حل محل الآلهة الوثنيين ، لقد عاش دانتي برأيه في كون شبيه بكون أبطال هوميروس ، ونطلع منه على وصف غير معقول لمنطقة توسكانيا في القرن الثالث عشر ، ونفهم من وصفه أن دانتي ولد وسط بربرية شنيعة في زمن عاد الناس فيه الى اللغة الخرساء ، لغة الأمم الوثنية الأولى ، حين كانت تعبر عن نفسها بالإشارات والأشياء المادية قبل أن توجد اللغات البينات . هذه المطابقة للصراع بين آل غويلف وآل غيبلن مع حرب طروادة غاية في الفنطازية ولكن لها دلالة دقيقة فيما يخص فن دانتي . إن قوة شعره التي يسميها فيكو ((عبقريته الغضوب)) ، ((السيول الكبرى لقصائده)) لم تكن منحدرة من أي موروث ،

لاتنتسب الى أي فن معلوم ، وقد كان دانتي شاعرا بطبعه كما كانت الأمم في أصولها عندما كان الشغف والمخيلة تغليان فيها . في عصر فيكو حين كانت ذائقة (أركاديا) الكلاسيكية هي المهيمنة فإن تمجيد سمو بربرية دانتي وعدم الإكتفاء بجعله رمزا قوميا عظيما كان له جانب ثوري . إن دانتي بالنسبة اليه شاعر بكل ما في الكلمة من معنى فقد كان على دانتي وهو يخلق قصيدته أن يخلق في الوقت نفسه اللغة الإيطالية وكذلك الأمة الإيطالية .

بربرية التفكرReflexion

هل يجب علينا إذن أن نرجع الى الأزمنة البربرية لكي يعود الشعر العظيم الى الظهور ؟ يلخص فيكو في واحدة من صيغه المدهشة التي يحتكر سرها ما يسميه ((النظام الذي تتبعه الأشياء البشرية)) بقوله :

((كانت في البدء الغابات ثم ظهرت الأكواخ وبعدها القرى ثم الحواضر وأخيرا الأكاديميات)) 239 . هل يجب العودة الى الغابات والأكواخ لنجد الشريان الشعري الذي نضب عند الأكاديميين ؟ لم يكن فيكو بعيدا عن هذا التصور ، فقد شرح وجهة نظره في رسالة مثيرة للإهتمام موجهة في عام 1725 الى شاعر شاب من أصدقائه هو جيراردو ديغلي آنجيولي . يكتب له قائلا لقد أتيت في زمن ((تسود فيه حكمة تجمد كل عطاء في الشعر الجيد الذي لا يقدر أن يعبر عن نفسه إلا بالمجازات والذي يتخيل الأشياء والأخلاق والإنفعالات بقوة ويتحسسها بحيوية)) ولكنه يضيف ((لابأس عليك فأسلوبك أصبح أفضل منذ مغادرتك فلورنسا منذ شهرين (كان الشاب قد ذهب لقضاء بعض الوقت في أرض عائلته) ((الغابات والغياض التي لا تبعث الطمأنينة في القلوب ولا تهذب الأخلاق عادة مسؤولة عن تقدمك المحسوس بقدر ما هو مفاجيء)) ثم ((أنت تحب دانتي أكثر من حبك للشعراء الآخرين ، أنت تحب هذا الشاعر العظيم الذي يبدو فظا جلفا وفكاهتك الكئيبة تتصل بفكاهته دون شك . لقد ولدت لتفكر كشاعر)) (2) .

غير أن الأمر لا يتعلق عندنا بالسخرية من الرابطة المقامة بهذه الصورة بين الشعر العظيم والذهاب الى الغابات . ليس فيكو نصيرا للبدائية كما يؤكد البعض وهو صادق في مدحه حين

يمدح الأزمنة ((الإنسانية)) ، المستنيرة ، المتحضرة ، الفلسفية التي يعيش فيها(يطالب فيكو عن جدارة بلقب فيلسوف) لكنه يظل مبهورا بالخاصية الفجرية ، الخلاقة ، المؤسسة ((للحكمة الشعرية)) التي كرس لها الجزء الأعظم والأقوى من عمله ، وإذا كان عليه أن يختار مابين ما يسميه ((بربرية الحس)) للشعراء الثيولوجيين الأوائل وما يسميه بتعبير رهيب ((بربرية التفكر)) حيث العالم لم يعد ينكتب إلا في نثر مثبط الهمة ، وحيث ((العقل مكتمل التطور)) يمحو الحس الإنساني المشترك ويترك كلا من الناس فيما يسميه ((عزلة المشاعر والإرادات)) فإنه كان سيختار الأول دون شك .

ولكن ربما كان فيكو قد كذب دون قصد هذه التشاؤمية في عمله بالذات . يثبت (العلم الجديد) أن الفلسفة لم تسبب إختفاء الشعر بل على العكس إستندت اليه الى درجة أنها تتطابق معه . ذكر فيكو في مكان ما أن القانون الروماني للوائح الإثنتي عشرة كان Serioso poema قصيدة جادة . ألا يمكننا القول أيضا أن La scienza nuova العلم الجديد هو Serioso poema قصيدة جادة ؟ أسلوبه ، وقاموسه يحير الإيطاليين أنفسهم ، ولسبب أقوى ، يحير المترجم الذي يتصدى لترجمته . ولكن هذه الغرابة لا تدلل على إنحراف تعسفي ومجاني عن الإستعمال الدارج للغة بل على إرادة سبر للكلمات الى حد العثور في غياهبها على أثر الأصول المندرس . أليس في ذلك يكمن عمل الشعر الأكثر سموا ؟ .

==========

الهوامش :

(1)– الأرقام هي أرقام مقاطع (العلم الجديد) الذي ترجمه وقدم له آلان بون (دار فايار عام 2001).

(2)– غيامباتيستا فيكو (حياة غيامباتيستا فيكو بقلمه . الرسائل . منهج دراسات زمننا) التقديم والترجمة والملاحظات بقلم آلان بون . دار غراسيه عام 1981 . ص 160– 167 .

==========

المصدر :

المجلة الفرنسية Commentaire – N 103 Automne 2003

عن كتاب فيكو *Scienza nuova*

المثقفون والحرب الأهلية الإسبانية

إريك هبزبوم

1

دعوني أبدأ بفيلم هوليوود الذي أصبح إيقونة دائمة لنوع من أنواع الثقافة الراقية، على الأقل عند الأجيال السابقة. هذا الفيلم هو (كازابلانكا)، وأتمنى أن أسماء الممثلين لا تزال مألوفة: همفري بوغارت، وأنغريد بيرغمان، وبيتر لور، وسيدني غرينستريت، ومارسيل داليو، وكونراد فيت، وكلود رين. أصبحت العبارات التي قيلت في الفيلم جزء من خطابنا: «إلعبها مجددا يا سام»، و «لمّ المشتبه بهم المعتادين». هذا الفيلم يمت بصلة أساسية بموضوع هذا البحث، فلو تركنا جانبا الحب الذي هو قضية الفيلم الأساسية فهو فيلم عن علاقات الحرب الأهلية الإسبانية بالسياسة الأوسع مدى لتلك الفترة الغريبة ولكنها حاسمة في تاريخ القرن العشرين، مرحلة أدولف هتلر. ستتذكرون أن (ريك) بطل الفيلم قد قاتل مع الجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية التي خرج منها مهزوما وساخرا من كل شيء وهو في مقهاه المغربي لينتهي

به المطاف عائدا الى الكفاح في الحرب العالمية الثانية. إن فيلم (كازابلانكا) باختصار يتحدث عن التعبئة ضد الفاشية في الثلاثينيات من القرن العشرين، وأولئك الذين عبئوا ضد الفاشية قبل غالبية الآخرين، وكانوا أكثر حماسا منهم، هم المثقفون الغربيون.

في تأريخي «للقرن العشرين القصير» (عصر المتطرفات: القرن العشرين القصير 1914–1991 ، أباكَس) (ترجمة العنوان حرفية The Age of Extremes: The Short Twentieth Century, 1914–1991 – المترجم)

ناقشت ميزات وتعقيدات هذه التعبئة. كما نعرف فإن المحور– ألمانيا، وإيطاليا، واليابان– قد دحر في النهاية باتحاد عسكري وشيء مثل الاتحاد الآيديولوجي، وهما إتحادان قصيرا العمر كلاهما، ما بين الولايات المتحدة الأميركية الرأسمالية والإتحاد السوفييتي الشيوعي، وإمبريالية بريطانيا العظمى الليبرالية–البرجوازية القديمة. لكن هذا الإتحاد لم يصبح فعالا حتى سنة 1941 بعد تسع سنوات من صعود هتلر الى السلطة. في الواقع لقد فُرض هذا الاتحاد على كل الحلفاء بالتوسع المستمر لقوى المحور برئاسة ألمانيا. لقد فرض هتلر حربا على بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة كان كل منهم يريد تجنبها.

كان من الواضح من اللحظة التي أتى فيها هتلر الى السلطة أن «الفاشية تعني الحرب» كما وصفها شعار من شعارات ذلك الزمن، وكذلك هي طبيعة المشروع النازي، على الأقل بالنسبة الى يسار الوسط السياسي، فلم يخْفِ هتلر حقيقة نواياه. الرد المنطقي كان واضحا: توحيد كل القوى المعارضة للفاشية لأي سبب كان. أرى هذه المسألة بديهية وحقا في النهاية تم تشكيل هذه الوحدة ودحرت الفاشية. لأسباب فشلتُ في فهمها كان هذا الأمر موضع خلاف، خصوصا من قبل الراحل (فرانسوا فوريه) في كتابه (ماضي وهم). إن ما أسخط فوريه هو أن الشيوعيين، وبالذات الحزب الشيوعي الفرنسي، أفادوا من سياسة إتحاد معاداة الفاشية، ورسخوا أنفسهم حقا كأنصار رئيسيين لهذا الإتحاد. لهذا أنكر حقيقة معاداة الفاشية التي رآها مجرد حيلة شيوعية تكتيكية للحصول على دعم الليبراليين والديمقراطيين السذج. إن كريستوف بوميان الذي نقد تاريخي للقرن العشرين في جريدة (لو ديبا) سعى، وهو يتبع منطقا مشابها، الى تصوير الصراعات السياسية لسنوات الثلاثينيات من القرن الماضي على أنها ثلاثية

الأطراف وليست ثنائية، وجادل، بأن الديمقراطية واجهت الفاشية والشيوعية معا بعداوة متساوية، أو هكذا توجب أن تفعل في الأقل.

لكن القضية لم تكن كذلك. كان الخيار بين الجانبين، وكانت النظرة الغالبة الى الأمر أنه إختيارا بين جانبين. أولئك الذين في لندن وباريس وواشنطن الذين خافوا من حرب عالمية جديدة لم يعتقدوا للحظة أنها ستكون ضد أي أحد عدا القوى المعتدية، يعني ألمانيا، سواء تحالفت مع إيطاليا واليابان أم لم تتحالف. لا شك أن بولندا ورومانيا ودول البلطيق الصغيرة كانت تخشى روسيا، ولسبب وجيه، ولكن إذا ما نظرنا الى القضية من وجهة نظر عالمية فإن روسيا كانت تعتبر الثقل الموازن إزاء الخطر الرئيس ألا وهو ألمانيا. لم يكن عند الليبراليين خيار الحيادية أصلا فقد كان الدرس الأكثر مباشرة من تجربة الحرب الإسبانية هو أن «عدم التدخل» قد ساعد جانبا واحدا. كان هذا واضحا للحكومة البريطانية التي أرادت بالتأكيد أن ينتصر القوميون، مع أنها أرادت كذلك أن تتجنب رسميا الوقوف الى جانب هتلر وموسوليني ضد البلشفية، وكما عبر عنها (موريس هانكي) أمين عام مجلس الوزراء يوم 20 تموز 1936:

«في المرحلة الحالية في أوربا، وفرنسا وإسبانيا مهددتان بالبلشفية، يستحسن أن نتحد مع ألمانيا وإيطاليا. كلما بقينا خارج التعقيدات الأوربية كلما كان أفضل»

(ذكر في Enrique Moradiellos, La perfidia de Albión: el gobierno británico y la Guerra civil española, Siglo XX, Madrid 1996, p.51)

كذلك كان واضحا لــ (ليون بلوم) أنه بقبوله (عدم التدخل)، وإن كان على مضض لأسباب تتعلق بالسياسة الداخلية والخارجية معا، إنما كان يخون الجمهورية الإسبانية (ليون بلوم رئيس وزراء فرنسا آنذاك-المترجم). وقد برر موقفه هذا علنا بدعوى أن عدم التدخل هو الطريق الوحيد لتجنب حرب، فأوربا كما قال تواجه خطر نشوب حرب في آب 1936 (في خطاب في مجلس النواب يوم 6 كانون الثاني 1936)، ولكن هذا لم يكن صحيحا، فالحيادية الصادقة ما بين الجانبين في الحرب الأهلية، أو المعاداة المتساوية لهما، كانت مستحيلة، وهذا على كل حال ما إكتشفه ستالين بنفسه في الأعوام 1939-1941.

في الحقيقة أن الرأي العام الليبرالي والديمقراطي لم يكن محايدا بين الجانبين. أوردت في كتابي (عصر التطرفات) نتائج الإستفتاء الذي أجري أوائل العام 1939 وكان السؤال الموجه الى شعب الولايات المتحدة الأميركية من ترغب أن يفوز في حالة إندلاع حرب بين روسيا وألمانيا فكانت النتيجة أن 83 بالمئة يرغب بانتصار روسي و 17 بالمئة يرغب بانتصار ألماني. يوجد إستقصاء للرأي مشابه يخص الحرب الإسبانية الأهلية حيث 87 بالمئة من الأميركيين فضلوا الجمهورية فيما فضل 13 بالمئة القوميين.

2

كانت الحرب الإسبانية في مركز فترة معاداة الفاشية وعلى هامشها في الوقت نفسه. كانت مركزية لأنها نُظر اليها على أنها حرب أوربية بين الفاشية ومعاداة الفاشية، وعلى نحو ما، هي بمثابة المعركة الأولى في الحرب العالمية المقبلة، وقد إستبقت بعض خصائصها كالغارات الجوية على السكان المدنيين. لكن إسبانيا لم تشترك في الحرب العالمية الثانية. كان إنتصار فرانكو أن لا يتحمل مسؤولية إنهيار فرنسا في العام 1940، ولم تكن تجربة قوات الجمهوريين المسلحة ذات صلة بحركات المقاومة في زمن الحرب اللاحقة، حتى وإن كانت هذه الحركات في فرنسا قد تشكلت بنسبة كبيرة من الجمهوريين الإسبان اللاجئين، ولعب المتطوعون الأمميون السابقون دورا رئيسيا في حركات المقاومة في البلدان الأخرى، وذلك لحقيقة مثيرة للإستغراب تتمثل في أن تكتيك حرب العصابات أو حرب الأنصار لم يستخدم كثيرا من قبل الجمهوريين خلال الحرب الأهلية، وإذا ما حصل في مكان ما، فإنه لم يكن ناجحا جدا، والمثير للإستغراب بدرجة أكبر أن هذه الستراتيجية أتبعت بنجاح في النطاق المحلي ضد سلطة فرانكو من قبل الشيوعيين الإسبان ما بين العامين 1945 و1949.

لم تستفد القوات البريطانية والأميركية المسلحة إلا نادرا من تجربة المتطوعين المعادين للفاشية قبل الأوان الذين قاتلوا في الفيلق الأممي بينما أفادت القوات الألمانية والإيطالية والروسية إفادة عظيمة من المحترفين الألمان الذين قاتلوا في إسبانيا ما بين العامين 1936 و1939.

الغريب تماما أن الحرب الأهلية قد أثرت تأثيرها الأعظم في التاريخ اللاحق من خلال إرثها السياسي أكثر من نشاطاتها العسكرية. كما حاولت أن أبين في كتابي (عصر التطرفات، الفصل الخامس، القسم الرابع) فإن الحرب الأهلية قدمت نموذجا للإستراتيجية السياسية لحركات المقاومة الأوربية وبالتالي نموذجا للشكل الذي تم تبنيه بعد التحرير من قبل الحكومات المحررة، خصوصا في منطقة النفوذ السوفييتي. كانت هذه المرحلة من السياسة الأوربية قصيرة الأمد على كل حال فقد وضعت الحرب الباردة نهاية لها بعد 1947.

بإختصار فإن إسبانيا بعد حضورها القصير في مركز تاريخ العالم رجعت الى موقعها التقليدي على هامشه، لكن الحرب الأهلية واصلت الحياة خارج إسبانيا كما لا تزال تعيش بين العدد المتلاشي بسرعة من معاصريها غير الإسبان. أصبحت، وبقيت، شيئا ماثلا في الذاكرة عند أولئك الذين كانوا شبانا وقتها مثل ذكرى حب أول عظيم ومضاع، تفطر القلب ولا يمكن أن يمحوها شيء. الحالة ليست هكذا في إسبانيا نفسها حيث الجميع قاسوا وطأة الحرب الأهلية المأساوية والإجرامية والتي تم تعتيمها بميثولوجيا نظام المنتصرين وتلاعبه بالحقائق، وقد دُرست هذه الناحية دراسة رائعة في:(Paloma Aguilar Fernández's Memoria y olvido de la Guerra civil española (Madrid 1996) [تذكر ونسيان الحرب الأهلية الإسبانية]. إذا أردنا وضع الحرب الأهلية الإسبانية ضمن هذا الإطار من مرحلة معاداة الفاشية فعلينا أن نتذكر شيئين: الفشل في مقاومة الفاشية والنجاح غير المتكافئ للتعبئة المعادية للفاشية بين المثقفين الأوربيين.

لست أتحدث فقط عن نجاح السياسة التوسعية للفاشية وفشل القوى المحبة للسلام في إيقاف الإقتراب الحتمي لحرب عالمية أخرى. أنا أتذكر كذلك فشل خصوم الفاشية في تغيير الرأي العام، والمناطق الوحيدة التي شهدت تحولا سياسيا حقيقيا الى اليسار بعد الكساد الكبير كانت هي إسكندنافيا وأميركا الشمالية. لقد كان معظم وسط وجنوب أوربا في ظل حكومات إستبدادية أو على وشك أن تكون في ظلها، ولكن بقدر ما يمكننا من الحكم على أساس المعطيات الإنتخابية المتناثرة فإن الإنجراف في هنغاريا وروسيا، ناهيك عن الإنجراف وسط الشتات الألماني، كان بغاية الوضوح نحو اليمين. من ناحية أخرى فإن إنتصار الجبهة الشعبية في فرنسا كان تحولا ضمن اليسار الفرنسي وليس تحولا للرأي العام نحو اليسار. لقد أعطى

الإنتصار الإنتخابي لسنة 1936 المتكتلين الراديكاليين والإشتراكيين والشيوعيين مجرد نسبة واحد بالمئة أعلى من النسبة التي حصلوا عليها في العام 1932. مع ذلك إذا كنت أستطيع إعادة تصور مشاعر ذلك الجيل من الذاكرة الشخصية، جيلي اليساري، مثقفين وغير مثقفين، فلم نكن نرى أنفسنا أقلية متراجعة. لم نتوقع أن الفاشية ستستمر في التقدم حتما، كنا متأكدين من أن عالما جديدا سيأتي. تبعا لمنطق الوحدة المعادية للفاشية فإن فشل الحكومات والأحزاب التقدمية في الإتحاد ضد الفاشية هو فقط ما علل سلسلة هزائمنا. هذا يساعد في تفسير التحول غير المتجانس نحو الشيوعيين من قبل أولئك الذين كانوا أصلا في اليسار. ولكنه يساعد أيضا في تفسير ثقتنا كمثقفين شباب، لأن هذه المجموعة الإجتماعية عبئت ضد الفاشية بسهولة أكبر من غيرها وبطريقة غير متجانسة، والسبب واضح، هو أن الفاشية، حتى الفاشية الإيطالية، كانت تتعارض مبدئيا مع القضايا التي تعرّف وتعبئ المثقفين كمثقفين خصوصا قيم التنوير والثورتين الأميركية والفرنسية. ما عدا في ألمانيا بمدارسها القوية الناقدة لليبرالية لم تكن توجد جماعة يُعتد بها من المثقفين العلمانيين لاتنتمي الى هذا التقليد. كان للكنيسة الرومانية الكاثوليكية عدد قليل جدا من المثقفين المعروفين والمحترمين بهذه الصفة خارج صفوفها. لست أنكر أنه في بعض الحقول، خصوصا الأدب، كان بعض من الشخصيات البارزة في اليمين بشكل واضح: إليوت، همسون، باوند، ييتس، بول كلوديل، سيلين، إيفيلين ووه. ولكن حتى في جيوش الأدب فإن الوعي السياسي اليميني شكل كتيبة متواضعة في الثلاثينيات، ما عدا في فرنسا. مرة أخرى يكون هذا واضحا في العام 1936. كان المثقفون الأميركيون، الذين قبلوا منهم بحيادية الولايات المتحدة أم الذين لم يقبلوا، معارضين بأغلبية ساحقة لفرانكو، وهوليوود أكثر معارضة (Frederick R. Benson, Writers in Arms: The Impact of the Spanish Civil War, 1968, p.26)، من الكتاب الذين سئلوا فضل خمسة منهم القوميين، و16 منهم عبروا عن حيادهم بينما كان 106 جمهوريين، وبحماس غالبا (Hugh Thomas, The Spanish Civil War, paperback edition, p. 347). أما بالنسبة الى إسبانيا نفسها لم يكن من شك في أي جهة وقف شعراء اللغة الإسبانية: غارسيا لوركا، الأخوان ماشادو، ألبيرتي، ميغويل هيرناندیز، نيرودا، فاليخو، غيلين.

هذا الإنحياز قد تم تشغيله قبلا ضد الفاشية الإيطالية، حتى وإن كانت تفتقر الى خاصيتين على الأقل تجعلانها على الأرجح غير محبوبة بين المثقفين، وهاتان الخاصيتان هما العنصرية (حتى سنة 1938) وكره الحداثة في الفنون. لم تفقد الفاشية الإيطالية دعم المثقفين، ما عدا أولئك الذين إنتموا الى اليسار في العام 1922، الى أن إندلعت الحرب الأهلية الإسبانية. يبدو، مع إستثناءات نادرة، أن الكتّاب الإيطاليين، بخلاف الكتّاب الألمان، لم يهاجروا خلال العهد الفاشي، وهكذا شكلت سنة 1936 نقطة تحول في الثقافة الأيطالية وفي التاريخ السياسي على حد سواء. ربما كان هذا هو السبب في أن الحرب الأهلية تركت آثارا قليلة على الأدب والفنون الإيطالية، بإستثناء الأعمال الإستذكارية (فيتوريني)، وأولئك الذين كتبوا عنها في وقتها كانوا مهاجرين ناشطين: روسيللي، بيكياردي، نيني، لونغو، توغلياتي (Aldo Garosci, Gli intelletuali e la Guerra di Spagna, Torino 1959, 433ff).

إلا أن العمل ضد المثقفين الألمان المعادين للفاشية إبتدأ منذ اللحظة التي إستلم فيها هتلر السلطة، باحتفالات الحرق الطقوسية للكتب التي لا تحبذها الآيديولوجية النازية، وأطلق بهذا سيلا من المهاجرين لأسباب آيديولوجية أو عرقية. لقد أدرك (ويللي موينزينبرغ) فورا الإمكانية العالمية لهذه الهجرة وإستثمرها إستثمارا متألقا مع الكتاب البني وحملة الدفاع عن ديميتروف عندما حوكم بتهمة حرق الرايخشتاغ.

كانت ردود أفعال المثقفين واليسار المعبأ على الحرب الأهلية الإسبانية، ولا عجب، تلقائية وهائلة. هنا أخيرا كان تقدم الفاشية يجد مقاومة بالسلاح. كان النداء للمقاومة المسلحة، أن يكون المرء قادرا على القتال وليس مجرد القدرة على الكلام، شيئا حاسما بالتأكيد. كتب الشاعر أودن، الذي طلب الذهاب الى إسبانيا للقيمة الدعائية لإسمه، الى صديقه: «سأكون ربما جنديا بمنتهى السوء، ولكن كيف أستطيع أن أتحدث اليهم وعنهم دون أن أكون واحدا منهم؟ »(Carpenter, Life of W. H. Auden, p. 207). أعتقد أنه من المضمون القول أن معظم الطلبة البريطانيين الواعين سياسيا من أترابي شعروا بأن عليهم القتال في إسبانيا وإنتاب الندم الذين لم يفعلوا. إن موجة المتطوعين التي لم يسبق لها مثيل والذين ذهبوا للقتال في صف الجمهورية هي حدث فريد من نوعه في القرن العشرين. إن الرقم الأوثق لعدد المتطوعين الى جانب الجمهورية هو حوالي 35 ألف مقاتل ولا يقل كثيرا

عن تقدير (هغ توماس) الأصلي وهو 40 ألف مقاتل –327 .(Skoutelsky, 1998, pp. 331). كانوا حزمة مختلطة، إجتماعيا، وثقافيا، وخلفية شخصية، ومع ذلك كما عبر أحدهم وهو الشاعر الإنكليزي (لوري لي):

«أعتقد أننا تشاطرنا شيئا آخر، فريدا بالنسبة الينا وقتها هو الفرصة في إجتراح المأثرة غير المعقدة للتضحية بالنفس والإيمان، التي ربما لن تسنح لنا مرة أخرى أبدا....مع ذلك فالقليل منا عرفوا بأننا جئنا الى حرب سلاحنا فيه بنادق قديمة ومدافع رشاشة عاطلة ليقودنا هواة شجعان ولكن مضطربون، ولكن لحظتئذ لا توجد أنصاف حقائق ولا ترددات، فلقد وجدنا حرية جديدة، وعلى نحو ما أخلاقية جديدة، وإكتشفنا شيطانا جديدا هو الفاشية» (Laurie Lee, A Moment of War, 1991, p.46).

لا أدعي أن المتطوعون في الألوية مكونة من مثقفين، حتى ولو متطوعين من أجل إسبانيا، فهو ليس كالتطوع للفيلق الأجنبي الفرنسي، إنه يفترض مستوى من الوعي السياسي، وبالتأكيد مستوى من معرفة العالم لم يكن يمتلكه أغلب العمال غير السياسيين. بالنسبة الى أغلبهم، بإستثناء أولئك الذين من فرنسا المجاورة، كانت إسبانيا terra incognita (تعني بالإسبانية أرضا مجهولة–المترجم)، وفي أفضل الأحوال كانت شكلا في أطلس مدرسة. شكرا للدراسة الرائعة (Skoutelsky, 1998) التي نعرف بفضلها بأن الكتلة البشرية الأكبر في الفيلق الأممي، وهي الفرنسية (أقل من 9 آلاف بقليل) جاءت الأغلبية الساحقة من المتطوعين فيها من الطبقة العاملة (92 بالمئة) ولا تضم سوى واحد بالمئة من الطلبة ومن العاملين في المهن الحرة، وكلهم واقعا شيوعيون (p. 143). وبالنظر لمؤهلاتهم التقنية فإن أغلب هؤلاء قد أستخدموا في الواقع خلف خطوط الجبهة (Rémi Skoutelsky, L'Espoir guidait leur pas: les volontaires français dans les Brigates internationals, Bernard Grasset, 1998).

من المحتمل أنه كان يوجد مثقفون أكثر بين المنفيين السياسيين الذين شكلوا كوادر الألوية وأتمنى أن لا أكون شوفينيا جدا إذا ما أشرت الى أن القسم الأكبر من اليهود بين المتطوعين إضطلع بنشاطات ثقافية. ثلث لواء إبراهام لنكولن الأميركي كانوا يهودا، وكذلك غالبية النساء الأميركيات في إسبانيا (N. Carroll, The Odyssey of the Abraham Lincoln

وفقا Brigade: Americans in the Spanish Civil War, Stanford 1994) لتقدير حسن الإطلاع فإن حوالي 7 آلاف من المتطوعين يهود (Arnold Paucker, Deutsche Juden im Kampf um Recht und Freiheit, Schriften d. Leo Baeck Instituts 2nd edition Teetz 2004, p. 254). على كل حال، داخل الألوية أو خارجها، أحيانا لا شك في الإلتزام السياسي العملي للمثقفين. لقد أعان كتّابٌ إسبانيا ليس فقط بالمال، والخطاب، والتواقيع، بل كتبوا عنها، كهمنغواي، ومالرو، وبيرنانوس، وواقعا، كل الشعراء البريطانيين الشبان المعاصرين المرموقين (أودن، سبندر، دي لويس، ماكنيس) كتبوا عنها. كانت إسبانيا هي التجربة المركزية لحياتهم بين العامين 1936 و1939، حتى وإن أبقوها بعيدة عن النظر فيما بعد. كان هذا واضحا أيام دراستي في كمبرج بين 1936 و1939. ليست هي إسبانيا فقط التي حولت الشبان والشابات الى اليسار بل إننا كنا ملهمين بالمثال المحدد لأولئك الذين ذهبوا للقتال في إسبانيا، وكل واحد دخل غرف القسم الداخلي في كمبرج للطلبة الإشتراكيين والشيوعيين في تلك الأيام كان واثقا أنه واجد فيها صورة لجون كرونفورد المثقف والشاعر والقائد الطلابي في الحزب الشيوعي الذي سقط في ميدان المعركة بإسبانيا في يوم عيد ميلاده الحادي والعشرين في شهر كانون الأول 1936، وكما هي صورة تشي جيفارا كانت صورة إيقونية بالغة القوة، ولكنها كانت أقرب الينا، وتقف في خزاناتنا، كانت تذكيرا يوميا لما كنا نقاتل من أجله. كما يحدث عادة لم يذهب الكثير من الطلبة في كمبرج أو غيرها بعد أن قرر الحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى، من المحتمل في خريف 1936، تثبيط الطلبة عن التطوع في الألوية الأممية إن لم تكن لديهم مؤهلات عسكرية محددة. العديد من الذين قاتلوا التحقوا بالقوات الجمهورية قبل أن يتبنى الحزب هذه السياسة. مع ذلك ضم المتطوعون الأمميون البريطانيون في صفوفهم عددا كبيرا من المثقفين الموهوبين الذين لقي العديد منهم مصرعه. على قدر ما أتذكر لم يعبر أحد من الذين بقوا على قيد الحياة عن الندم على قرارهم المشاركة في القتال.

3

لم تتوقف أبدا السجالات حول الحرب الأهلية، وغالبا ما تكون منفعلة، بين الخاسرين منذ 1939. لم تكن هي هذه الحالة عندما كانت الحرب مستمرة رغم أحداث كالحظر الذي

فرضته الحكومة الجمهورية على (حزب العمال للإتحاد الماركسي) POUM المعارض (في إسبانيا-المترجم) وأثار قتل قائده (أندريس نين) بعض الإحتجاج العالمي. من الواضح أن عددا من المتطوعين الأجانب الذين وصلوا الى إسبانيا، مثقفون أو غير مثقفين، قد صدموا لما رأوه هناك، للمعاناة والفظاعة، والقتال بلا رحمة، والوحشية والبيروقراطية في الجانب الذي يحاربون معه أو، بقدر ما هم واعون لها، للمكائد والضغائن بين الجمهوريين، ولسلوك الروس وأشياء أخرى كثيرة. مرة أخرى لم تتوقف أبدا النقاشات بين الشيوعيين وخصومهم، ومع ذلك ظل الشاكون ساكتين ما أن غادروا إسبانيا. لم يرغبوا في أن يساعدوا أعداء القضية العظيمة بحديثهم عن الأخطاء. لم تقل (سيمون ڤيل) بعد عودتها كلمة واحدة مع أنها كانت خائبة الأمل بوضوح. لم يكتب أودن شيئا رغم أنه عدل قصيدته العظيمة (إسبانيا) التي كتبها في العام 1937 ولكنه رفض السماح بإعادة طبعها في العام 1951. لويس فيشر، الصحفي المرتبط إرتباطا وثيقا بموسكو، وقد واجه رعب ستالين، نبذ ولاءاته السابقة، ولكنه كلف نفسه عناء هذا الفعل فقط عندما إعتقد أنه لم يعد يؤذي قضية الجمهورية الإسبانية. الإستثناء يثبت القاعدة: رفض ناشر أورويل المعتاد (فكتور غولانز) كتابه (تحية الى كاتالونيا) «معتقدا كالعديد من اليساريين أنه يجب التضحية بكل شيء للحفاظ على جبهة مشتركة ضد صعود الفاشية» وقد كان هذا السبب الذي صرح به أيضا كنغسلي مارتن محرر المجلة الأسبوعية ذات النفوذ (نيو ستيتسمان ونيشن) بخصوص قراءة نقدية لكتاب. إنهما يمثلان وجهات النظر المهيمنة على اليسار. أقر أورويل نفسه بعد عودته من إسبانيا بأن «عددا من الناس قالوا لي بدرجات مختلفة من الصراحة بأنه يجب أن لا تقال الحقيقة عما يحدث في إسبانيا والدور الذي لعبه الحزب الشيوعي لأن فعل هذا سيقلب الرأي العام ضد الحكومة الإسبانية وبالنتيجة يساعد فرانكو» .(Hugh Thomas, p. 817) حقا أنه، كما أقر أورويل نفسه في رسالة الى مراجع كتبٍ ودّي: «ما تقوله عن عدم السماح للفاشيين أن يتشفوا بالخلافات فيما بيننا صحيح تماما» وأكثر من هذا فإن الجمهور لم يُظهروا إهتماما بالكتاب الذي طبع في العام 1938 بـ 1500 نسخة بيع منها بضعة نسخ والمخزون منها لم ينفد بعد 13 سنة من طبعه لأول مرة .(Orwell in Spain, pp. 28, 251, 269-70) وظل أورويل بنظر الآخرين أخرقا وشخصا هامشيا الى أن حلت الحرب الباردة.

إن النقاشات اللاحقة للحرب الإسبانية مشروعة طبعا، وجوهرية حقا، ولكن فقط حين نعزل النقاش في القضايا الحقيقية عن تحيز التعصب السياسي، ودعاية الحرب الباردة، والجهل الخالص بماض منسي. يبقى السؤال الرئيس الراهن في الحرب الأهلية الإسبانية كيف إرتبطت الثورة الإجتماعية والحرب في الجانب الجمهوري. كانت الحرب الأهلية الإسبانية، أو بدأت، كثورة إجتماعية وحرب، كانت في الوقت نفسه حربا ولدت من مقاومة الحكومة الشرعية، بمساعدة تعبئة شعبية، ضد إنقلاب عسكري ناجح جزئيا في جزء كبير من إسبانيا، تحولت التعبئة العفوية الى ثورة إجتماعية. إن حربا خطيرة تديرها حكومة تحتاج الى بنية وإنضباط ودرجة من المركزية، وما يميز الثورات الإجتماعية كثورة 1936 هو المبادرة المحلية والعفوية والاستقلال من السلطة العليا، وحتى مقاومتها إذا أخذنا بنظر الإعتبار القوة الفريدة للتنظيمات الفوضوية في ذلك البلد. باختصار إن الذي كان ويبقى رهن النقاش في هذه النقاشات هو ما الذي فرق ماركس وباكونين (يقصد الخلافات التي كانت قائمة بين الشيوعيين أتباع ماركس والفوضويين أتباع باكونين في إسبانيا آنذاك–م). الجدل حول حزب العمال للإتحاد الماركسي BOUM المعارض ذو صلة بهذه القضية، وبالنظر الى حجمه الصغير وهامشية دوره في الحرب الأهلية والتي بالكاد تُلحظ. ترقى النقاشات الى تاريخ الصراعات الآيديولوجية في داخل الحركة الشيوعية العالمية، أو إذا رغب أحد، ترقى الى تاريخ حرب ستالين التي لا رحمة فيها ضد التروتسكية كما يصورها عملاؤه (خطأ). يبقى الصراع حقيقيا في إسبانيا بين الحماسية المنفلتة والتنظيم المنضبط، بين الثورة الإجتماعية وكسب الحرب، حتى لو إفترضنا أن الإتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي أرادا أن تنتهي الحرب بثورة وتلك الأجزاء من الإقتصاد التي أممها الفوضويون (سلمت الى سيطرة العمال المحليين) تعمل بشكل جيد. لا يمكن خوض حروب، مهما كانت حلقات القيادة مرنة، أو إقتصاديات الحرب تسير، بأسلوب الفوضويين. إن الحرب الأهلية الإسبانية لم يكن لها أن تخاض، ناهيك عن أن تربح، بطريقة جورج أورويل.

على كل حال، بمعنى اكثر عمومية، الصراع بين الثورة كإلهام للحرية وبين كسب الحرب ليس إسبانيا صرفا. لقد برز تماما بعد إنتصار الثورات في حروب التحرير: في الجزائر، وربما في فيتنام، وبالتأكيد في يوغوسلافيا. منذ أن خسر اليسار في إسبانيا أصبح النقاش في هذه الحالة بعد أوانه ويزداد بعدا عن حقائق الزمن، مثل فيلم المخرج كين لوش، مهما كان ملهما

ومحركا. إن النفور الأخلاقي من الستالينية وسلوك عملائها في إسبانيا مبرر. حق أن ننتقد القناعة الشيوعية بإن الثورة الوحيدة التي تستحق الأخذ بنظر الإعتبار هي الثورة التي تجلب للحزب إنفراده بالسلطة، ومع ذلك فهذه الإعتبارات ليست مركزية في مشكلة الحرب الأهلية، إذ ان ماركس كان سيواجه باكونين حتى ولو كان الجميع في الجانب الجمهوري ملائكة. ولكن يجب أن يقال بأنه من بين أولئك الذين قاتلوا فعلا من أجل الجمهورية كجنود أكثرهم وجدوا ماركس أقرب اليهم من باكونين، ويوجد البعض ممن بقوا على قيد الحياة من يتذكر برقة وسخط معاً النشوة العفوية ولكنها غير الفعالة من قبل جانب التحرير الفوضوي.

يمكن اليوم رؤية إسهامة الحرب الأهلية الإسبانية للتاريخ المأساوي لأكثر القرون وحشية، القرن العشرين، ضمن سياقها التاريخي. هي ليست كما يجادل النيوليبرالي فرانسوا فوريه بأنها حرب ضد الفوق–يمين والكومنترن معا، وهي وجهة نظر يتبناها أيضا، من الزاوية التروتسكية المتعصبة، كين لوش في فيلمه القوي. كانت حربا ضد فرانكو، يعني ضد قوى الفاشية التي إصطف معها فرانكو حتى وإن لم يكن هو فاشيا، والذي كسب في الحرب الأهلية الإسبانية، ليس كما في الحرب العالمية الثانية، هو الجانب الباطل (فرانكو)، ولكن الى حد كبير بفضل المثقفين والفنانين والكتاب الذين تعبئوا بشكل ساحق من أجل الجمهورية كتب التاريخ في هذه اللحظة ليس من قبل المنتصرين بل من قبل الخاسرين. إن القلم والفرشاة والكاميرا التي جندت في خدمة المدحورين، وهي تخلق الذاكرة العالمية للحرب الأهلية الإسبانية، أثبتت أنها أقوى من السيف وسلطة اولئك الذين كسبوا الحرب.

****

ولد إريك هبزبوم في العام 1917 وعاش في لندن. مؤرخ وكاتب درّس في لندن وأنحاء مختلفة من العالم، وأستاذ غير متفرغ في الإقتصاد والتاريخ الإجتماعي في جامعة لندن. هو مؤلف عدد من الكتب التاريخية المهمة وسيرة ذاتية. عميد كلية بيركبيك، جامعة لندن. أُخذ هذا المقال من (ثوريون، دار أباكَس، 2007) وأعيد نشره بموافقة المؤلف الكريمة. (ملاحظة: توفي هبزبوم في العام 2012–المترجم)

عنوان المقال الأصلي:

ERIC HOBSBAWM: INTELLECTUALS AND THE SPANISH CIVIL WAR

عن موقع:

THE ORWELL PRIZE

عن ملاءمة الماركسية لدراسة المجتمعات البشرية

إريك هوبزبوم

=====

((لم يفعل الفلاسفة حتى الآن سوى تفسير العالم والمطلوب تغييره)). إن منطوقي هذه الأطروحة– من أطروحات في فويرباخ– قد ألهما المؤرخين الماركسيين، وقد إتبعهما أغلب المفكرين– ومنهم المؤرخون– الذين إعتنقوا الماركسية إعتبارا من ثمانينيات القرن التاسع عشر، لإنهم كانوا يريدون تغيير العالم، بالتعاون مع الحركات العمالية والإشتراكية، وهي حركات أصبحت في معظمها ، تحت تأثير الماركسية فيما بعد، القوى السياسية الجماهيرية. وجه هذا التعاون بطبيعة الحال المؤرخين الذين يريدون تغيير العالم نحو حقل دراسة معين– خصوصا تأريخ الشعب أو الشغيلة– والذي، وإن كان قد جذب بطبيعة الحال أهل اليسار، ليس له أية علاقة خاصة بالتفسير الماركسي أصلا، بل بالعكس إن هؤلاء المفكرين كفوا منذ

تسعينيات القرن التاسع عشر عن أن يكونوا ثوريين إجتماعيين، لا بل وكفوا غالبا عن أن يكونوا ماركسيين.

لقد أحيت ثورة 17 أكتوبر السوفييتية هذا الإلتزام مجددا، فلنتذكر أن الماركسية لم تتخل عنها الأحزاب الرئيسية الإجتماعية الديمقراطية الأوربية رسميا إلا في سنوات الخمسينيات من القرن العشرين أو حتى في زمن لاحق. لقد رسخت هذه الثورة ما يمكننا تسميته الهيستوريوغرافي (التدوين التأريخي) الماركسي الإلزامي في الإتحاد السوفييتي وفي الدول التي أخضعت للنظام الشيوعي فيما بعد. لقد وجد الحافز النضالي دعما خلال مرحلة معاداة الفاشية.

ضعف هذا الحافز إعتبارا من خمسينيات القرن العشرين في البلدان المتطورة– ولكن ليس في العالم الثالث–، رغم أن التطور الهام للتعليم الجامعي والتحريض الطلابي قد أفرز دفعة جديدة ومهمة من أناس عازمين على تغيير العالم، وإذا ما كانوا راديكاليين، فإن عددا منهم في الوقت نفسه لم يكونوا ماركسيين صراحة، وبعضهم لم يعودوا ماركسيين مطلقا.

بلغ هذا الإنبعاث ذروته في سنوات السبعينيات، قبل أن يبدأ رد فعل جماهيري ضد الماركسية، وهذه المرة أيضا لأسباب سياسية أساسا. لم يكن رد الفعل هذا، كأثر رئيسي، مدمرا إلا في أوساط الليبراليين الجدد الذين لازالوا يلتزمون بطروحات الماركسية، كان من بين معطياته فكرة أنه يمكن التنبؤ، بمساعدة التحليل التأريخي، بإن طريقة معينة لتنظيم المجتمع البشري هي طريقة ناجحة. لقد فك التأريخ إرتباطه بالتيليولوجي Téléologie (1).

فما كان شأن "تفسير العالم" الماركسي؟ إن التأريخ مختلف قليلا ولكنه يجري بالتوازي أيضا. أنه يتعلق بما يمكن أن نسميه رد فعل مضاد لـ(رانكه) (2) شكلت الماركسية فيه عنصرا مهما دون أن يكون هذا الأمر معروفا تماما. تعلق الأمر أساسا بحركة مزدوجة. هذه الحركة تعارض الفكرة الوضعية التي كانت البنية الموضوعية للواقع وفقا لها واضحة تقريبا: يكفي أن نطبق منهجية العلم، أن نفسر لماذا الأشياء حدثت كما حدثت وأن نكتشف Wie es eigentlish gewesen (كيف حدث هذا تحديدا؟).

لقد بقي التدوين التأريخي بالنسبة الى جميع المؤرخين، ويبقى، مستقرا في حقيقة موضوعية، لمعرفة حقيقة ما حدث في الماضي، إلا أنه ينطلق ليس من "أحداث" بل من "مشاكل" ويتطلب

التحقيق لكي نفهم بالنتيجة لماذا وكيف أن هذه المشاكل- نماذج وتصورات- قد صيغت في التقاليد التأريخية والمناخات الإجتما-ثقافية المختلفة. من جانب آخر، فإن هذه الحركة كانت تحاول أن تقترب من علوم التأريخ الإجتماعية، وبالنتيجة، تحتويها داخل نظام عام قادر على تفسير تحولات المجتمع البشري. إن هدف كتابة التأريخ، وفقا لصيغة لورينس ستون (3)، يجب أن يكون ((طرح أسئلة "لماذا" العظيمة)). هذه ((الإنعطافة الإجتماعية))، بالنسبة الى علوم معينة ناشئة كهذه كانت ترسخ نفسها آنذاك كأنظمة نشوئية، يعني تأريخية، لم تأت من التدوين التأريخي، بل من العلوم الإجتماعية. إن الماركسية، في النطاق الذي يمكن فيه إعتبار كارل ماركس أبا لسوسيولوجيا المعرفة، رغم إنها قد جرى وصمها ظلما بتهمة وضعية عمياء مفترضة، قد أسهمت في المرحلة الأولى لهذه الحركة بالتأكيد. وأكثر من هذا فإن الأثر الأكثر شهرة للأفكار الماركسية- الأهمية التي أوليت للعوامل الأقتصادية والإجتماعية- لم تكن ماركسية تحديدا، حتى وإن كان التحليل الماركسي قد ألقى بثقله كله في هذا الإتجاه. هذه الأهمية تتسجل في حركة عامة للتدوين التأريخي، ملحوظة إعتبارا من تسعينيات القرن التاسع عشر وبلغت ذروتها في خمسينيات وستينيات القرن الماضي لصالح جيل المؤرخين الذي أنتمي إليه، والذي واتته الفرصة لتغيير النظام.

إن هذا التيار الإجتما-إقتصادي قد تجاوز الماركسية. إن تأسيس مجلات وإقامة مؤسسات للتأريخ الإقتصا- إجتماعي، في ألمانيا، كان صنيعة إجتماعيين ديمقراطيين ماركسيين، مثل مجلة Vierteljahrschrift في العام 1893. لم تكن هذه هي الحال في بريطانيا العظمى أو فرنسا أو الولايات المتحدة، وحتى في ألمانيا لم يكن في المدرسة الإقتصادية،التأريخية للغاية، أي ماركسي. ولم يتخذ التأريخ الإقتصادي بوصفه "علما إجتماعيا" في القرن التاسع عشر والقرن العشرين إتجاها إجتماعيا ثوريا قبل كل شيء إلا في العالم الثالث وفي (روسيا والبلقان)، وبالنتيجة أمكن للماركسية أن تجتذبه. إن إهتمام المؤرخين الماركسيين التأريخي لم يكن محمولا على "القاعدة" (البنية التحتية الإقتصادية) بقدر حمله بين القاعدة والبنية الفوقية. لقد كان المؤرخون الماركسيون دائما قليلين نسبيا بشكل واضح، فقد أثر ماركس في التأريخ بواسطة المؤرخين والباحثين في علم الإجتماع الذين أعادوا تناول الأسئلة التي طرحها والتي زودتهم، أو لم تزودهم، بإجابات أخرى. التدوين التأريخي الماركسي بدوره تقدم كثيرا

قياسا الى هذا العمل في مرحلة كارل كاوتسكي و جيورجي بليخانوف (4) ويرجع الفضل في هذا، في جزء كبير، الى تخصيبه بأنظمة أخرى (خصوصا الأنثروبولوجيا الإجتماعية) وبوساطة مفكرين متأثرين بماركس وجاءوا ليتمموه كماكس فيبر (5).

إن كنت أوكد على السمة العامة لهذا التيار المرتبط بالتدوين التأريخي فليس لرغبة مني في التقليل من أهمية التفرعات التي غطاها أو التي كانت موجودة داخل مكوناته. إن محدثي التأريخ طرحوا على أنفسهم الأسئلة نفسها وإعتبروا أنفسهم ملتزمين في المعارك الثقافية نفسها التي تستمد إلهامها من الجغرافيا البشرية، وسوسيولوجيا دوركهايم (6)، وإحصائيين كما في فرنسا (مدرسة الحوليات و لابروس معا)، أو من سوسيولوجيا فيبر مثل Historische Sozialwissenschaft في ألمانيا الإتحادية، أو أيضا من ماركسية مؤرخي الحزب الشيوعي الذين شكلوا خطوط الإشعاع الموجهة لتحديث التأريخ في بريطانيا العظمى أو، في الأقل، أسسوا مجلته الرئيسية.

هؤلاء وأولئك كانوا يعتبرون أنفسهم بمثابة حلفاء ضد النزعة المحافظة في كتابة التأريخ حتى وإن كانت مواقفه السياسية أو الآيديولوجية متعارضة. إن تحالف التقدم هذا وجد له تعبيرا إنموذجيا في مجلة (باست أند بريزنت) التي أسست في العام 1952 والتي شكلت مرجعا في عالم المؤرخين. تدين هذه المجلة بنجاحها الى الماركسيين الشباب الذين أسسوها رافضين، عن تبصر، الإنغلاق الآيديولوجي، وكان المجددون الشباب الآتون من آفاق أخرى مستعدين للإنضمام إليها لأنهم يعرفون أن الإختلافات الآيديولوجية والسياسية ليست عائقا أمام التعاون. تقدمت هذه الجبهة تقدما مذهلا ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وأعوام السبعينيات ضمن ما سماه ستون ((الحشد الواسع للتشوشات في طبيعة الخطاب التأريخي))، حتى أزمة 1985 التي شهدت العبور من الدراسات الكمية الى الدراسات النوعية، من التأريخ الأكبر الى التأريخ الأصغر، من التحليلات البنيوية الى السرديات، من الإجتماعي الى الثيمات الثقافية.

منذئذ أصبح التحالف التجديدي في حالة دفاع، وكذلك الحال بالنسبة الى المكونات غير الماركسية مثل التأريخ الإقتصادي والإجتماعي.

إن الظاهرة السالبة الأكثر أهمية، على الصعيد المنهجي، كانت تشييد مجموعة من الحواجز بين ما حدث أو ما يحدث في التأريخ، وبين قابليتنا على ملاحظة هذه الأحداث وفهمها. هذا الإغلاق يتمثل في رفض الإعتراف بوجود حقيقة موضوعية وليس مجرد شيء أنشأه المراقب لغايات مختلفة وتغييرية، أو يتمثل في واقع تسويغ فكرة أننا لا نستطيع أبدا الذهاب الى أبعد من حدود اللغة، يعني التصورات التي هي، برأي أصحابها، الطريقة الوحيدة التي نستطيع التحدث بها عن العالم، بما في ذلك العالم الماضي.

هذه الرؤية تستبعد مسألة المعرفة إن كانت توجد مخططات وإنتظام في الماضي يمكن للمؤرخ أن يصوغ إنطلاقا منها فرضيات ذات مغزى. توجد في الوقت نفسه أسباب لهذا الرفض أقل نظرية: إنهم يحاججون أيضا بأن مجرى الماضي بالغ التحديد، يعني أن الأحكام العامة قد أستخلصت، لإن أيا كان يمكنه، عمليا، الوصول إليها أو ينبغي له ذلك. هذه المحاججات تقف ضمنا في مواجهة جميع العلوم. دعونا نعرج على المحاولات الأكثر جدوى للرجوع الى تصورات قديمة: عزو سير التأريخ الى أصحاب القرار السياسيين أو العسكريين رفيعي المستوى، أو الى قدرة كلية لأفكار أو "قيم" ، تختزل التبصر في التأريخ الى بحث، وإن كان مهما، فهو غير كاف بحد ذاته. للتعرف على الماضي.

إن الخطر السياسي الأول الذي يهدد التدوين التأريخي الحالي هو ((الكلية المضادة)) anti-universalisme ((حقيقتي كحقيقتك صحيحة مهما كانت الأحداث)). هذه الكلية المضادة إجتذبت طبعا تأريخ جماعات تماثلية بأشكالها المختلفة تكون مادة التأريخ، بالنسبة إليها، ليس (ما حدث) بل (بماذا) يهم ماحدث أفراد جماعة معينة. ما يهم هذا النوع من التأريخ عموما ليس التفسير العقلاني بل "المعنى"، ليس ما حدث بل كيف شعر أفراد جماعة تمتاز عن جماعات أخرى، بعلاقاتها الدينية أو الأثنية أو القومية أو الجنسية أو نمط الحياة وغير ذلك، بما حدث.

مارست جاذبية النسبويةRelativisme تأثيرا على تأريخ جماعات تماثلية. إن إختلاق حقائق تأريخية وأسطورية مضادة بالجملة، بقدر ماهي تشويهات، قد أملاها الإنفعال لأسباب مختلفة، وقد شهد هذا الإختلاق عصرا ذهبيا حقا خلال السنوات الثلاثين الماضية. بعض هذه الأساطير تشكل خطرا عاما- في بلدان مثل الهند في عهد الحكومة الهندوسية (7)، وفي

الولايات المتحدة، وفي إيطاليا سيلفيو بيرلسكوني، عدا عن عدد من القومانيات الجديدة التي تترافق أو لا تترافق مع دفعة أصولية دينية.

لكن إذا كانت هذه الظاهرة قد أطلقت سيلا من الأكاذيب والهذر لا نهاية له في الهامش الأكثر بعدا من تأريخ مجاميع معينة- قوميين، نسويين، شاذين جنسيا، سود وغيرهم- فإنها أدت الى تطورات تأريخية لا سابق لها، ومثيرة للإهتمام جدا في ميدان الدراسات الثقافية، مثل ((إنفجار الذاكرة في الدراسات التأريخية المعاصرة)) كما يسميها جي وينتر (8)، وكتاب (أماكن الذاكرة) لكتاب مختلفين بالتعاون مع بيير نورا (9)، مثال جيد على هذا.

لقد جاء الآن الوقت المناسب، إزاء كل هذه الإنحرافات، لإقامة تحالف بين من يريدون أن يروا في التأريخ تحقيقا عقلانيا في مجرى التحولات الإنسانية، بالضد من أولئك الذين يشوهونه تشويها منهجيا لغايات سياسية، وأيضا بطريقة أكثر عمومية، بالضد من النسبويين وما بعد الحداثويين الذين يرفضون الإعتراف بأن التأريخ يوفر إمكانية هذا التحقيق العقلاني. البعض من هؤلاء النسبويين يعتبرون أنفسهم يساريين والبعض الآخر ما بعد حداثويين، وإنشقاقات سياسية غير متوقعة تهدد بتقسيم المؤرخين، غير أن المقترب الماركسي يعلن عن نفسه عنصرا ضروريا في إعادة بناء جبهة العقل، كما كان في سنوات الخمسينيات والستينيات. إن الإسهام الماركسي في الحقيقة ربما كان أيضا أكثر ملاءمة اليوم، بحكم أن مكونات التحالف الأخرى قد تخلت عن دورها، كمدرسة الحوليات حسب قول فيرنان بروديل، و "الأنثروبولوجيا الإجتماعية البنيوية-النفعية"، اللتين كان تأثيرهما بين المؤرخين عظيما. لقد أضرت بهذا النظام الإندفاعات نحو شخصانية ما بعد الحداثة.

في الوقت نفسه، بينما ينكر ما بعد الحداثويين إمكانية فهم تأريخي، فإن التقدم في العلوم الطبيعية يعيد لتأريخ الإنسانية النشوئي أهميته الآنية كلها دون أن يفطن المؤرخون لذلك حقا. أولا أن تحليل الحمض النووي قد أرسى علم أحداث للتطور أكثر تماسكا منذ ظهور إنسان الهوموسابين بقدر ما هو نوع، وأرسى بشكل خاص تسلسل أحداث الإنتشار، في باقي أنحاء العالم، لهذا النوع ذي الأصل الأفريقي، والتطورات التي تلت، قبل ظهور المصادر المكتوبة، وفي الوقت نفسه، كشف قصر مدة التأريخ البشري المدهش هذا- وفقا للمعايير

الجيولوجية والإحاثية- وإستبعد حل البايولوجيا الإجتماعية الداروينية الإنقسامي Réductionniste (10).

إن من المهم جدا توضيح تحولات البشرية، جماعية وفردية، عبر الآلاف العشرة الأخيرة، وخصوصا خلال الأجيال العشرة الأخيرة، بآلية نشوء داروينية تماما، بالجينات. إنها تتطابق مع تسارع نقل الخصائص الذي تم إكتسابه من قبل آليات ثقافية وليست جينية- يمكننا القول أنه أنتقام (لامارك) (11) من داروين في ميدان التأريخ البشري. لا ينفعنا كثيرا أن نلبس الظاهرة أقنعة إستعارات بايولوجية بالحديث عن "أمثال" (12) بدلا من "جينات" . إن تراثي الثقافة والبايولوجيا لا يعملان بالطريقة نفسها.

وعلى سبيل الإيجاز نقول إن ثورة الحمض النووي تتطلب منهجا خاصا، تأريخيا، لدراسة نشوء الجنس البشري. إنها تقدم بالمقابل إطارا عقلانيا لكتابة تأريخ العالم، تأريخ يتناول الكوكب بكل تعقيده بوصفه وحدة دراسات تأريخية وليس محيطا مستقلا أو منطقة محددة.

إن التأريخ بتعبير آخر هو إستمرار النشوء البايولوجي للهوموسابين بوسائل أخرى.

ثانيا... إن البايولوجيا النشوئية الجديدة تستبعد التحديد الصارم بين التأريخ والعلوم الطبيعية التي محيت بواسطة "أرخنة" منهجية لهذه العلوم خلال العقود الأخيرة. يتحدث (لويجي لوقا كافاللي-سفورزا) وهو واحد من رواد هذه الثورة متعددي المناهج:

((إن لمن دواعي الفرح الفكري أن نجد كثيرا من التماثل بين ميادين الدراسة المتباينة التي ينتمي بعضها تقليديا الى قطبين ثقافيين متعارضين: العلم والإنسانيات)). بإختصار إن هذه البايولوجيا الجديدة تحررنا من النقاشات الزائفة حول معرفة ما إذا كان التأريخ علما أم لا.

ثالثا: إن هذه البايولوجيا الجديدة لا بد أن تأخذنا الى مقترب أساسي للنشوء البشري يتبناه الآثاريون وعلماء ما قبل التأريخ يرتكز على دراسة أنماط التفاعل بين جنسنا ومحيطه، وكذلك هذه السيطرة المتماسكة التي تمارسها هذه البايولوجيا عليه. هذا يعيدنا بالضرورة الى طرح أسئلة كان قد طرحها ماركس. إن "أنماط الإنتاج"، مهما كان الأسم الذي تسمى به، مقامة على تجديدات رئيسية في مادة التكنولوجيا الإنتاجية، والإتصالات، والتنظيم الإجتماعي-

وأيضا على قوة عسكرية- التي هي في قلب النشوء البشري. هذه التجديدات، كما أدرك ماركس، ليست طارئة مفاجئة، ولا تكون طارئة مفاجئة من تلقاء نفسها. إن القوى المادية والثقافية وعلاقات الإنتاج لا يمكن فصلها. إنها نشاطات رجال ونساء وهم يصنعون تأريخهم، لكن ليس في فراغ، وليس خارج الحياة المادية، وليس خارج ماضيهم التأريخي.

بالنتيجة فإن المنظورات الجديدة للتأريخ لا بد أن تقودنا الى هذه الغاية الأساسية للذين يدرسون الماضي- حتى وإن لم يكن مدركا دائما بشكل تام. "التأريخ الكلي" وليس "تأريخ الكل"، لكن التأريخ مثل نسيج لا يتجزأ تترابط فيه النشاطات البشرية. ليس الماركسيون وحدهم هم الذين طمحوا الى هذه الغاية- برودل كذلك-، ولكنهم كانوا هم من توجهوا نحوها بأكبر قدر من الإصرار.

من بين الأسئلة المهمة التي تثيرها هذه المنظورات الجديدة هي المسألة الجوهرية التي تقودنا الى النشوء التأريخي للإنسان. المسألة تتعلق بالصراع بين القوى المسؤولة عن تحول الهوموسابين منذ العصر البشري النيوليتي وحتى العصر البشري النووي من جانب و من جانب آخر القوى التي تدعم بثبات إعادة إنتاج وإستقرار الجماعات البشرية أو البيئات الإجتماعية والتي حيدتها بفعالية في الجزء الأعظم من التأريخ. هذه المسألة النظرية مركزية. إن توازن القوى يميل بطريقة حاسمة بإتجاه من الإتجاهات. وإنعدام التوازن هذا، الذي يتجاوز ربما قابلية الإدراك البشري، يتجاوز بالتأكيد قابلية سيطرة المؤسسات الإجتماعية والسياسية البشرية.

إن المؤرخين الماركسيين الذين لم يدركوا النتائج الحتمية وغير المرغوبة للمشاريع الجماعية البشرية للقرن العشرين، يمكنهم هذه المرة بحكم تجربتهم العملية أن يساعدوا في فهم كيف وصلنا الى ما وصلنا إليه.

==========

الهوامش:

هذا المقال سبق لجريدة لو موند دبلوملتيك أن نشرته عام 2004 ثم أعادت نشره في مطبوعها الدوري Manière de voir (المعنى حرفيا...طريقة رؤية) لشهري آذار ونيسان 2009 مع مجموعة مقالات لمفكرين آخرين كشومسكي وبورديو. العنوان الأصلي للمقال De la pertinence du marxisme pour penser les sociétés humaines- المترجم.

1-(النظرية الغائية- عقيدة تستند الى فكرة أن كل شيئ في الطبيعة موجه مسبقا نحو غاية معينة).

2- رد فعل مضاد لـ(Leopold Von Ranke 1795-1886) المعتبر أبا لمدرسة الهيستوريوغرافي (التدوين التأريخي) الجامعي المهيمن قبل العام 1914 . أهم أعماله (تأريخ الشعوب الرومانية والجرمانية من 1494 الى 1535) الصادر في العام 1824 وكتاب (تأريخ العالم) الذي عمل عليه بين عامي 1881 و 1888 ولم ينجز.

3- Lawrence Stone 1920-1999 . أحد الشخصيات الأكثر حضورا وتأثيرا في التأريخ الأجتماعي. أهم كتبه (أسباب الثورة الأنكليزية 1529-1642) الصادر في العام 1972 ، و (العائلة والجنس والزواج في أنكلترا 1500-1800) الصادر في العام 1977.

4- الأول قائد للحزب الأجتماعي الديمقراطي الألماني والثاني قائد الحزب الإجتماعي الديمقراطي الروسي بداية القرن العشرين.

5- Max Weber (1864-1920) سوسيولوجي ألماني.

6- Emile Durkheim (1858- 1917) الذي أسس (قواعد المنهج السوسيولوجي) 1895 ولهذا عد واحدا من آباء السوسيولوجيا الحديثة. أهم كتبه (عن تقسيم العمل الإجتماعي) 1893 و عمله (الإنتحار) 1897.

7- كان قوميو حزب فاراتيا جاناتا على رأس الحكومة الهندية من 1999 الى 2004.

8- أستاذ في جامعة كولومبيا (نيويورك) واحد من أكبر المختصين بتأريخ حروب القرن العشرين، وخصوصا، أماكن الذاكرة.

9- أماكن الذاكرة- ثلاثة أجزاء، 1984، 1986، 1993.

10- نسبة الى إسم تشارلس داروين (1809- 1882) عالم طبيعة إنجليزي وضع نظرية نشوء الأنواع مقامة على الإنتخاب الطبيعي.

11- Jean-Baptiste Lamarck (1744- 1829) عالم طبيعة فرنسي هو أول من إنفصل عن فكرة دوام النوع.

12- "الأمثال" وفقا لريتشارد داوكينز Richard Dawkins، (وهو واحد من صف الداروينية الحديثة)، هي وحدات قاعدة الذاكرة، مفترض أنها ناقلات لخصائص الذاكرة مثلما الجينات هي ناقلات الخصائص الجينية للأفراد.

دور الكلمة في تاريخ الحركة الإشتراكية

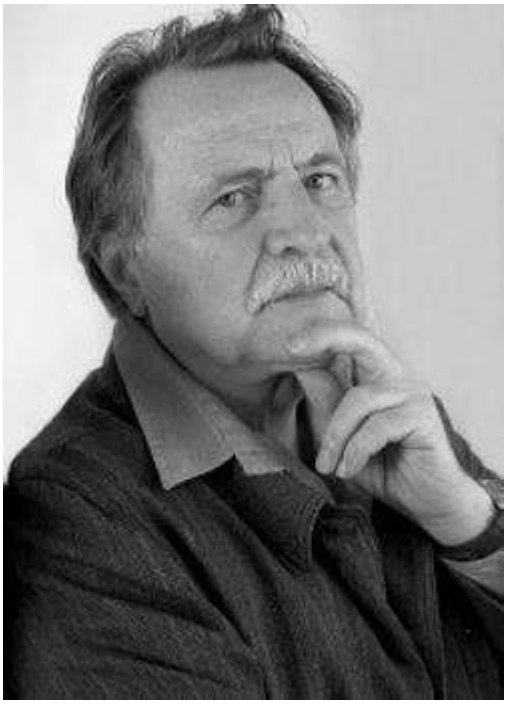

ريجي دوبريه

إن مبتكر كلمة (إشتراكية) هو المطبعي والموسوعي العبقري ومناضل ثورة 1848 (بيير ليرو) المولود عام 1797 وكان والده يعمل ساقيا في حانة. درس ليرو في الإعدادية الصناعية وإلتحق بورشة طباعة حيث إبتكر طريقة طباعية جديدة سماها (بيانو تايب). أسس صحيفة (غلوب) عام 1824، وبالإشتراك مع جورج صاند أسس (ريفيو إندبندانت) عام 1841. أسس بعد إنتقاله الى (بوساك) دار نشر خاصة به وإجتذب مجموعة من الأتباع والقراء. أنتخب عضوا في الجمعية التأسيسية عند قيام ثورة 1848، وكرمته ثورة الكومونة1871 رسميا عند وفاته. إن التعبير المركب (الكتاب، الجريدة، المدرسة) هو الذي أصبح بعد هذا التأريخ الداينمو المحرك للتطورية الحلزونية للحركة العمالية وقد جرى تمثيله خير تمثيل بشخص ليرو بحيث يمكننا القول أن الأشتراكية ولدت وبطاقة المطبعي معلقة حول عنقها.

كان (الكتاب، الجريدة، المدرسة) هو المفكرة العملية التي سبقت البرامج السياسية، وبهذا فالإشتراكية كانت إعدادا حرفيا مهنيا قبل أن تكون عملية ذهنية، وقد إنطلقت في لحظة

تأريخية معينة...الأممية الأولى التي أسست في لندن عام 1864، ورابطة التعليم التي تأسست في باريس عام 1866، وإختراع الطباعة الدوارة عام 1867 من قبل (مارينوني)، والتي يسرت مضاعفة معدل الطبع عشر مرات، ولكن إنطلاقها جاء أيضا مع تشكل معين للوعي. كتب ناظر العمال (بيير برونو) في مذكراته التي طبعت عشية الكومونة (إن طبقة القرن التاسع عشر العاملة لها ثلاثة طموحات الأول هو مكافحة الجهل والثاني مكافحة الفقر والثالث مساعدة بعضنا بعضا). إذاً كان أول وأهم طموح هو النضال ضد الجهل، جمع شتات صرخة قوى العقل. كان الطباعون والمثقفون والمعلمون هم المساعدون الثلاثة للحركة الإشتراكية. كانت تقدم في أي مأوى للعمال أو (بيت الشعب) مكتبة وصحف وصفوف تدريس مسائية وقراءات. اليوم لازالت توجد منابر وكتب وصحف لكن موازين القوى إختلفت وإختلفت معها مراكز القوى. إن الإعتبار والقيمة اللتين أضفيتا فيما مضى الهالة التي نعرفها على الكتب والمعلمين والقراء المتجولين في جمعيات العمال التثقيفية وفي (الجامعات الشعبية) قد تراجعا كثيرا. لعبت الثقافة الشفاهية أيضا دورا كبيرا في الحركة العمالية.. طبعا، الخطب في التجمعات، وخطب المؤتمرات، والندوات.. خطب (جوريس)، وخطب لينين، و (بلوم)، كل هؤلاء كانوا يتحدثون دون مساعدة مكبرات الصوت، يرفعون عقيرتهم بالصياح حتى ليكادون يسقطون إعياء، أمام عشرات الآلاف من المستمعين. لكن إذا كان الناطقون بإسم الإشتراكية يعولون كثيرا على منابرهم مثلما يعولون على مطبوعاتهم فإن بلاغتهم الخطابية كانت ممهورة بثقافة كتبية وإلفة طويلة مع الكلمة. حتى إرتجالهم للخطب كان يوحي بأنه صادر عن قارئ أو أستاذ. كان العديد منهم رجال برلمان عظماء وخطباء مفوهين ومنابر للدفاع عن عامة الشعب ضمن التقاليد الجمهورية الكلاسيكية ولكن كلماتهم أقيمت أساسا على الكلمة المكتوبة.

كتب (بلانكي) الرجل الذي أوصل أفكار الثورة الفرنسية عام 1789 الى كومونة باريس عام 1871 يقول (كونت الأفكار منذ 1789 قوة وخلاص البروليتاريا وهي تدين لها بكل إنتصار حققته). إن المفاهيم المجردة كانت أبجدية التدريب النضالي، ومفهومي البروليتاريا والبرجوازية حالهما حال مفاهيم قوة العمل وفائض القيمة وعلاقات الإنتاج غير قابلة أول الأمر لأن تدرك بالحواس، وفكرة الثورة سواء كانت مشروعا واقعيا أم فكرة طوباوية بوصفها (مايجب أن يكون) هي رفض وتجاوز للمباشر، هي السيطرة على الحاضر. إن الحلم

الإشتراكي يتطلب قطيعة داخلية مع (مجرى الحياة اليومية) بوصفه واقعا مفروضا، إنه فعل إيمان يحرك لدى الإنسان قوى التحليل الإدراكي لتحويل التخيلات الإجتماعية المقبولة الى مجردات أولية كما يقوم الإنسان بعملية إستثمارية في ميدان ما فيكون عليه حساب العناصر الأولية. إن الكتابة تجعل الذاكرة الفردية جماعية بنشرها لأفكار الفرد بين الجماعة، والقراءة تجعل الذاكرة الجماعية فردية بفعل القراءة الذي يقوم به كل فرد على حدة. التخاطر بين الذاكرتين يغذي الحس التأريخي بإكتشاف الممكنات ضمن الحاضر، خالقا خلفيات (تجارب ماضية) ومستقبليات (مشاريع فكرية)، هذا الحضور المشترك لتجربة الماضي مع مشروع المستقبل هو أساس الفكرة الإشتراكية. عندما يكون الجو باردا والليل طويلا وأنا وحيد فغن الذاكرة تعني بالنسبة لي أني لست وحيدا وهي الجليس المناسب (بالقراءة أو التذكر)، إنها ذاكرة أبجدية كما يجدر بهيغل أن يصوغها. لقد وصف، وهو يقارن القيمة التثقيفية التي لا تقدر بثمن لتعلم القراءة والكتابة بحروف اللغة الأبجدية مع الرموز الهيروغلوفية، وصف كيف أن عملية الكتابة الأبجدية تساعد على تحويل إنتباه الذهن من الأفكار المباشرة والإنطباعات الحسية الى (البناء الأكثر أساسية للكلمة ومكوناتها المجردة بطريقة تعطي الإستقرار والإستقلال للحياة الذهنية الداخلية).

كل رجال العمل الثوري الذين إلتقيت بهم، من تشي جيفارا الى فام فان دونغ الى كاسترو وحتى الموسوعات التي تمشي على قدمين كالتروتسكيين وغيرهم كانوا قراء إلزاميين منذورين للكتب، وبقدر ما كانوا يحبون الكتب كانوا غير متقبلين للصور لأنها نسخة من الواقع الذي يريدون تغييره. قد يفسر لنا مؤمن بفكر هيغل هذا الأمر بأن القراءة تؤدي الى إنفصام حاسم والى حدس الحلم بحياة فاضلة. التجريد يشجع الفعل كما يؤدي التذكر الى التجديد. إن أعظم الذين يقومون بالتحديث يدشنون عملهم بقفزة الى الخلف، النهضة تتحقق عبر عودة الى الماضي، إعادة دوران، ومن ثم ثورة. إكتشف كولومبس أمريكا أولا في المكتبة، عبر النظر في نصوص غامضة وفي كتب الوصف الجغرافي. لم يقلب النظام الفرنسي القديم عام 1789 المعجبين بجورج واشنطن بل المعجبين بكتابات (ليكروغوس) و (كاتو). نشر (شاتوبريان) و (هيجو) فكر الثورة في الأدب بقراءتهما قبل ذلك الأدب القوطي، وتجاوز نيتشه (جول فيرن) بإطلاعه على كتابات من سبق سقراط ، أما (فرويد) فقد ساعدته في نظريته قراءته لمسرحيات

أسخيلوس. إن الشقاء الذي يعانيه الثوريون يكمن في أنهم ورثوا علما أكثر من الذي ورثه غيرهم، فهؤلاء الثوريون الناقلون للذاكرة الجماعية تكون الكلمة المكتوبة حيوية بالنسبة لهم لأنها جزء لايتجزأ من أدواتهم التحليلية. غن ميراث الأفكار غير قابل للنقل تلقائيا إذ توجد بيئات أفضل وبيئات أسوأ لنقل التجريدات تماما كما توجد معادن موصلة للكهرباء أفضل وأخرى أسوأ. يبدأ الفعل الثوري الحقيقي بإحساس من الحنين، بعودة الى النص المنسي، الى مثال مفقود. تشبه الثورة عملية تسليم العصا في سباق البريد. إذا كانت المنشورات هي الوسط بالنسبة للتأريخ كمشهد فأن الأرشيف هو الوسط بالنسبة للتأريخ كممارسة. إن قصة الشيوعية هي حكاية عن الباحثين في الأراشيف والأوراق القديمة. كانت الشيوعية هي إبتكار (كراشوس بابوف) الكتبي وهو المختص بالقانون الإقطاعي وأخذ أفكاره المركزية من (روسو) و (مابلي) و الرقوق القديمة. إزدهرت أفكار الإشتراكية في مخازن الكلمة المكتوبة. قال ميشيليه (لقد ولد تأريخي للثورة الفرنسية في الأراشيف، كنت أكتبها في هذا المستودع المركزي)، ويعني به مكتب التقارير الرسمية. ينسج الرجال طريقهم بين النصوص والنصوص تسلك طريقها بين الرجال، الأساطير تولّد الأفعال التي تولّد الأساطير وحركة السرد تستحث بمهمازها حركة الشعب. تواريخ روما كان لها تأثيرها على نواب ثورة 1789 وعلى كتاب لامارتين (تأريخ الجيروندديين) وعلى كتاب لويس بلانك (تأريخ الثورة الفرنسية) عن ثوار 1848، وعلى كتاب هيجو (البؤساء) عن الكومونة وعلى كتابه (93) عن ولادة الجمهورية الثالثة.

إذا كان تأريخ المدرسة دائما محملا بدلالة سياسية فإن التأريخ السياسي قد حمل بدوره تطبيقات مدرسية. إن (المعركة من أجل التعليم) كانت في مقدمة البرنامج اليساري. لقد عرفت الإشتراكية، بوصفها علما لأصول تدريس النظرة العالمية، ورهانها يكمن في التعليم. فكر كل مناضل ينضم الى تيار إشتراكي أن عليه تعلم العادات الصفية المدرسية، وقد تشكل قانون الشرف الإشتراكي على نموذج الطالب النجيب، لأن الطالب الذي لديه مطاولة لايسأم من الدرس وسينتصر على العدو الطبقي. كان من بين قرارات حكومة ثورة الكومونة الأولى تعيين هيئة تعليم برئاسة (أدوار فيان)، وعندما أجهضت الثورة وجرى نفي المناضلة (لويز ميشيل) الى جزيرة كلدونيا كان أول ما فعلته هناك هو إقامة مدرسة لتعليم أطفال أهالي الجزيرة

(الكاناك) ولو كانت لديها إمكانية أكبر لأصدرت جريدة. لقد إختار الحزب الشيوعي الفرنسي منذ تأسيسه عام 1920 كادره الأعلى من المدرسين والأساتذة. هذا ليس غريبا عن الحركة الإشتراكية ففي عصر الثورة الصناعية الأولى هيأ عمال الطواحين معلميهم وورث عنهم عمال الحديد في الثورة الصناعية الثانية هذه العادة. لقد كشف المعلم آنذاك بتواضعه وإنضباطه الشديد الشبيه بإنضباط جندي من إسبارطة عن مدى عمق جذور التنظيم الإشتراكي في ثقافة عصر التنوير. يقول (بيلوان) وهو أحد مناضلي ذلك العصر في مذكراته (عندما كنا ندس المناشير في صناديق البريد أو من تحت الأبواب كنا نعود الى بيوتنا ماشين مشية مدرس عاد للتو من تدريس طلابه.

إن أول من نحت تعبير (الطبقة العاملة) كانت هي جريدة الصحفي بوشيه المسماة (لاتيلييه) (تعني المشغل–م) الصادرة بين عامي 1830 و 1840 ولطالما كانت الجريدة هي الأهم بنظر أي حزب مناضل، ففي حين أن (تأسيس مدرسة يعني تأسيس حزب) يقول لينين (الجريدة ليست فقط جهازا دعائيا ومحرضا جماعيا بل هي أيضا منظم جماعي) لذلك كان من أول مهمات أي حزب إصدار جريدة. إن بذرتها الواحدة تجمع خواص عدد كبير من البذور، وهكذا كان (جوريس) و (تروتسكي) و (لينين) يؤدون بأنفسهم المهمات نفسها (كتابة، تنضيد، طبع، إرسال). يجري بذر الكلمات المطبوعة ليكون الحصاد مناضلين أشداء، وكانت إدارة الحزب وإدارة الجريدة متزامنتين بحيث لا يعقل وجود قائد أمي. تشكل الجريدة بتعبير لينين (جسرا بين نظرية الطليعة وحركة الطبقة العفوية) وبعبير جوريس (هي جسر بين الميتافيزيقيات والعالم)، الجريدة تعيد توحيد المفكر والعامل وتزود الإشتراكية بالصلة اليومية بين المثقف والشعب. كانت المطابع منذ القرن 17 وحتى القرن 20 أماكن لقاءات ونقاط إتصال بين أناس من مهن مختلفة وطبقات مختلفة حيث يجرى التبادل الثقافي بينهم لا محالة قبل أن يأتينا هذا الزمن فيتحول السياسيون الى مقتنصي أصوات ونجوم حفلات كوكتيل. لقد كتب الكثير عن أسباب تضاؤل دور الأحزاب الإشتراكية ولكن عاملا واحدا جرى تجاهله على نطاق واسع وهو التحول الذي حدث في العالم من الإنتاج المكتوب (المرن، غير الممركز، والممكن الحصول عليه بمبالغ معقولة) الى الإنتاج السمعي–البصري (التقني المكلف ماليا) بحيث يصعب على ممثلي الطبقات الكادحة الدخول في هذا المجال والمنافسة خصوصا أن

أسلوب الإنتاج الجديد يقوم على قوانين السوق الحرة وهو ما يتعارض مع المبادئ الأولية للفكر الإشتراكي. إن حرية الطباعة تكمن في أن لها وجها لا صناعيا. هل يصدق أحد اليوم أنه في عام 1904 كان (هير) و (بلوم) و (ليفي–برول)، وهم كتبي ومحام وأستاذ، يصدرون يوميا من جريدة (لومانتيه) فجرا طبعة أولى 138000 نسخة مخصصة للمشتركين فقط مقابل 850000 فرنك عدا الطبعة التي توزع في المكتبات والشارع ؟ لقد تغيرت اليوم طبيعة وسائل الإعلام ولو جاء ممثلو الطبقة العاملة الثلاثة هؤلاء اليوم لما إستطاعوا أصدار جريدة بهذا العدد فالتكاليف أصبحت خارج قدرات مثقفي الكادحين.

لم يسبق أن كانت للأعلام هذه السرعة لكن الفرق أن (الرسالة) قديما كان يمكن أن تبقى على الرف طويلا ولكنها في النهاية تصل. أفضل مثال على عناء وتعب الدعاة قديما هو مثال ماركس إذ أن عمله (رأس المال) تطلب 30 عاما لكي يطبع وقضى مجلده الأول 25 سنة لكي تباع نسخه كلها. كتب ماركس في رسالة شهيرة بعثها عام 1872 الى (لو شاتر) وتصدرت الكتاب (أستحسن فكرتك لطبع الكتاب على شكل ملازم فيكون وصولها الى الطبقة العاملة أسرع وبسعر أنسب) فأي ناشر كان سيقبل بأن يجازف بطبع كتاب صعب يحتوي أفكارا عسيرة على الهضم ويأمل أن يربح أو على الأقل أن لا يتعرض للخراب؟ هكذا تطلب من الطبقة العاملة زمنا طويلا لتتوصل، عن طريق ماركس، الى معرفة كيفية إستغلال البرجوازية لها. وزع (لو شاتر) ما بين عامي 1872 و 1875 من الملازم 44 ملزمة يتكون كل منها من 40 صفحة. كانت طبعة أول ملزمة جريئة حيث كانت 10000 نسخة ثمن الواحدة 10 سنتات. بيع في اليوم الأول 234 نسخة ثم حدثت الكارثة إذ لم تكن تتوفر الأموال للدعاية ولا للدعم من أية منظمة سياسية، ولم تبع النسخ الباقية إلا بعد 25 سنة بمساعدة (حزب العامل) الفرنسي، وفي الحقيقة لقد جرى تجاهل كتاب رأس المال ولم يلق إهتماما حقيقيا إلا بحلول عام 1890 أي بعد سبع سنوات من وفاة مؤلفه، من قبل مجاميع المناضلين ورجال العلم وحتى ذلك الوقت كان الكتاب يقرأ بتلخيص دولفيل (موجز دولفيل 1883) البالغ 253 صفحة أو يقدم في محاضرات. طبع (البيان الشيوعي) باللغة الألمانية في لندن، وحتى عهد الكومونة التي أظهرت قيمته لم يكن يقتنى إلا بدافع الفضول، ولم يظهر في فرنسا إلا عام 1872 بعد مضي 24 عاما على كتابته بفضل لورا إبنة ماركس ولم يبدأ يستأثر بالأهتمام إلا

عام 1885 . طبع ماركس (بؤس الفلسفة) على نفقته في باريس عام 1847 ولم تبع منه خلال ستة أشهر إلا 96 نسخة حتى أن الناشر أرسل النسخ الباقية مجانا الى الأصدقاء. لم يذكر ألفريد سودر كلمة واحدة عن ماركس وأنجلز في كتابه (تأريخ الشيوعية) 1848 في صفحاته البالغة 532 صفحة. لم تحظ طبعة رأس المال الأولى سوى بمراجعتين في صحيفتين مترفعتين وقد إنتقدوا ماركس لأنه لا يفعل في الكتاب سوى (الإنتقاد دون تقديم مقترحات ملموسة للمستقبل)، كان التجاهل والأوقات العصيبة التي مر بها ماركس شديدة الى درجة أنه فرح بالمقال الوحيد المرحب بكتابه في صحيفة لندنية عام 1881 حتى أنه عرضه على زوجته وهي على فراش الموت (ليضيئ لحظاتها الأخيرة) كما كتب هو فيما بعد. إننا ونحن ننظر الى الوراء نتساءل كيف أن كاتبا لكتب صعبة لم يكن يستسغ قراءتها أحد إستطاع أن يعلم العالم كله طوال 100سنة؟

إنتقلت عصا البريد حول العالم من يد ليد. من جمعية (المتساوين) التي أسسها المختص بالقرون الوسطى (بابوف) الى جمعية (المواطنين الجدد) التي أسسها الكتبي الشاب ماوتسي تونغ. لقد ضلل بوناروتي (1761–1837) مديرية الأمن وظل على قيد الحياة بعد صاحبه بابوف (1760–1797) أربعين عاما وهو أصغر منه بسنة. كتب بوناروتي قصة تأريخهما المشترك الذي عاشاه عام 1837 (مؤامرة بابوف من أجل المساواة) وقد طبع في بروسيل حيث لجأ ماركس بعد طرده من باريس عام 1845 ووجد صومعته الأولى عند فيليب جيجو خبير الأرشيف. إن المنفى في بروسيل كان مثل المنضدة الدوارة بعد إنتفاضة 1815 . هنا قابل بوناروتي مندوبي (المؤتمر) السابقين (بارير) و (فاديه) اللذين نظما فيما بعد (كاربوناري) مهد المنظمات السرية التي نمت تحت ظل ملكية تموز ومن هذه الجمعيات برزت رابطة العدل التي أصبحت الرابطة الشيوعية عام 1847 بواسطة ماركس وأنجلز مع مندوبين عن بلانكي (رأس وقلب الحزب البروليتاري في فرنسا) مرت القضية من اليعاقبة الى الإشتراكية عن طريق بلانكي (1805–1881) المحكوم بحوالي 39 سنة سجن وأربعة أحكام بالأعدام. بلانكي هو الذي ناول المشعل الى فيان في الكومونة والذي ناوله بدوره الى (جوريس). إن الماراثون الأولمبي... لمعان الحرف الأكثر إشتعالا من اللهب كان يمر من عداء لعداء دون أن ننسى الحكايات الهامسة في الوديان التي هي عبارة عن مئة عام من القصص تنتقل من

الجدات الى الأحفاد. يستذكر الشيوعي الفرنسي القديم جيرار بيلوان قائلا (كانت طفولتي مليئة بالقصص عن مسيرة الفقراء الطويلة عبر العصور). قصص تثيرها كسرة خبز تقع على الأرض أو حساء يتبقى في الصحن. كان يستعصي على الحكومات محو هذه القصص لأنها مثل المياه الجوفية تنساب من جيل لجيل.

كان الفوضويون والإشتراكيون إبنين مختلفي الطباع لعائلة واحدة ولكنهما كليهما كانت حياتهما مليئة بالمنشورات والمقالات والصحف والملاحق الأدبية. لقد تقاسم (أبناء) ماركس وباكونين نفس (الإنجيل) وهو القراءة وحث الآخرين عليها، وحيثما ذهبوا خلفوا وراءهم مكتبة. إستطاع (هوبزبوم) أن يقيس درجة تغلغل الإشتراكية في أوربا بين عامي 1890 و 1905 بمقارنته لعدد المطبوعات السنوية. كتب هيجو قصيدة يخاطب بها العمال الأميين قائلا:

هل نسيت أن محررك هو الكتاب؟

الكتاب هناك في الأعالي.

إنه يتلألأ لأنه يشع ويضيء .

إنه يحطم المشنقة والحرب والجوع

إنه يتكلم قائلا لا عبيد ولا منبوذين بعد اليوم.

*

ملاحظة المترجم: هذا جزء من بحث طويل للمفكر الفرنسي ريجي دوبريه بعنوان (الإشتراكية دورة حياة) وقد ترجمنا منه ما يختص بدور الكلمة، والعنوان من وضعنا).

نبذة عن المترجم

جودت جالي من مواليد 1951 في بغداد بقرية الرستمية. مارس هواية الرسم والتمثيل والكتابة للمسرح في النشاطات الطلابية والشبابية وكتب الشعر ونشره وحاز على العديد من الجوائز في المهرجانات الشبابية والطلابية وجائزة تقديرية من إذاعة صوت الجماهير. له قصائد وقصص ومقالات منشورة منذ أوائل السبعينيات. عضو اتحاد الأدباء وله كتب:

عن دار الشؤون الثقافية

***(نصوص عن بول ريكور) 2012 مقالات مترجمة عن فكر ريكور بقلم ريكور وكتاب آخرين.**

***(في المنهج الأخلاقي للعمل السينمائي) 2016 مقالات مترجمة لعدة كُتّاب.**

وعن دار ضفاف:

***(التودد الى الزوجة) 2018 مختارات قصصية مما ترجمه خلال ثلاثين عاما.**

***(فك الحزن) 2017 مجموعة قصصية.**

***(مارواه العجوز حكمان عن الفتى الجميل جوهر) 2018 مجموعة قصصية.**

***(جهات السينما الأربع) 2017 مقالات في أفلام سينمائية.**

***(الهجاء السياسي في الشعر العراقي) 2017 مقالات في الأدب والفن والثقافة عموما.**

***(لا وقت لهديل الحمام) 2019 رواية قصيرة.**

وعن دار المأمون:

***(حرب المهرجين) 2019 مختارات قصصية لكتاب عالميين.**

وله قصة (ممشى الكالبتوس) في كتاب مشترك (مسابقة سافرة جميل حافظ للقصة القصيرة دورة 2017).

ومن إصداراته الألكترونية:

***(شداد تحت الخربوش) رواية بدوية 2020**

***(الهروب العظيم)مجموعة مقالات ثقافة عامة منوعة**

***(أكاذيب) مختارات قصصية أجنبية مترجمة**

***(نقطة تبادل التوابيت) مجموعة قصصية**

***(سنوات ناظم حكمت المبكرة ومقالات أخرى)**

منح شهادة تقديرية من اتحاد الادباء والكتاب في العراق.